

روایات عبر



مَارغْرِیْت رُوم

# مَارِیْتَة!



# روايات عبر

HARLEQUIN – "ABIR" – No. 31

## هاربة!

رحلة العذاب عادة تبدأ بخطوة صغيرة تدفع الانسان الى متاهات مجهولة. مارييل بدأت رحلتها من بلدها الضبابي بريطانيا بجواز سفر صديقتها شارون للقاء خالتها صوفي في بولونيا فأنتهت في عربة زعيم الغجر المدعو روم بورو الذي خلصها من قبضة الشرطة. ولم يستطع انقاذها من شعورها بالمدلة حين دفع ثمنها بضع قطع ذهبية ليتزوجها حسب تقاليد قبيلته.

تري هل تستطيع مارييل الهروب من روم بورو كما هربت بجواز سفر مزور؟ ام ان الوقوع في حب هذا الغجري افضل من وقوفها وراء قضبان السجن؟

## ١ - لقاء الجذور

توقفت مارييل على الرصيف الأوسط للشارع تعزها عن الجانب الآخر حركة المرور المرعة وأبواق السيارات الصاخبة، ونظرت إلى المباني المحيطة بها: إذا هذه هي وارسوا المدينة التي وصلت إليها بعد مشاق ومخاطر عديدة، أعصابها كانت لا تزال تهتز كلما أطلقت نفسها عنان التفكير في الاحتمالات التي يمكن حدوثها.

كانت المندعة أول الأمر تبدو بسيطة، لا ضرر منها. حين عثرت شارون، زميلتها في السكن، وأعز صديقة لها، على وظيفة مع فريق من الراقصات يعمل في النوادي الليلية في جميع أنحاء أوروبا. وصلت مارييل متأخرة على موعد المقابلة المخصصة لاختيار الراقصات. وبرغم أعذارها لم تنجح في تغيير الواقع، وهو أن جميع الأماكن الخالية في الفرقة شغلت، وأن الإدارة لم تعد تهتم بمزيد من المقابلات رغم تشويق المتقدمات لزيارة أوروبا. وقبل مضي ٢٤ ساعة على موعد سفرها، انزلت شارون في الشارع وسقطت، مما تسبب بكسر عدة عظام في قدمها، وعندما زارتها مارييل في المستشفى نظرت إليها بابتسامة ضعيفة وهي تحمل لها حقيبة بما ستحتاج إليه في المدة التي علمت أنها ستطول في المستشفى.

وتنهدت شارون وقد تغلب القلق على آلامها وهي تقول:

«من الذي سيحلّ محلي في فترة وجيزة كهذه؟»

قطمأنتها مارييل وهي تقول:

«سيعثرون على غيرك. فكثيراً ما تقع الحوادث للراقصات أكثر من

سواهن هكذا يميل إليّ. فاهدأي يا عزيزتي، فلا بد أن لديهم أساءة احتياطية في سجلاتهم.

وحاولت أن تصرف ذهن شارون عن هذه المشكلة بتغيير الموضوع إلا أن جيبين صديقتها ظل مقطباً من القلق بالرغم من ردها على استفسار مارييل عن كيفية وقوع الحادث.

وفجأة قالت شارون بطريقة تلقائية وهي تقاطع كلام مارييل - التي كانت تستكر إهمال الناس بتركهم الشمع يتسرب من سياراتهم على الأرض، معرضين بذلك المشاة للخطر، مما أدى إلى انزلاقها:

«لماذا لا تحلين محلي؟»

وفتحت مارييل فمها من الدهشة. ولكن الصمت الذي تبع ذلك كان مليئاً بالأسئلة. وأخيراً تمتت قائلة:

«كيف أستطيع أن أفعل ذلك؟»

كانت عيناها تتان عن حاجتها إلى أن يطمئنها أحد ويرشدها إلى طريقة تمكنها من الوصول إلى ما تصبو إليه.

فجلست شارون فجأة وقد نسيت ضرورة الحذر من الحركة نظراً لحالة قدمها وقالت:

«تستطيعين بكل سهولة، إن السيدة غلوري المسؤولة عن الفرقة تعرفنا جيداً، لكنك تعرفين أيضاً كيف تنسى الأسماء والأشخاص بسرعة. فكثيراً ما خلطت بيننا عندما عملنا معها في الماضي، ولن تكون مشكلة بالنسبة إلينا إذا خدعنا تلك السيدة العجوزة.

فأرمأت مارييل برأسها للدلالة على موافقتها على فكرة صديقتها، إلا أن تعبير وجهها حمل معنى التردد وهي تعترض على

رأبها:

«لكن هناك أنطوني جيمس، سيرفني وسيفهم أنني غريبة عن الفرقة». استخفت شارون بتعليق صديقتها وقالت:

«أنطوني جيمس! إن كل اهتمامه منصب على سيقان الراقصات، فبرغم أنه قام بمهمة الاختبار وله الرأي الأخير في الاختيار لكنه لا يعرف الوجهه أبداً».

فضحكت الفتاتان من هذا الوصف الذي ينطبق على ذلك الرجل المعروف بشغفه بالسيقان الطويلة. واستمرت الفتاتان في مزاحهما بحيث لم يكن في وسعهما التفكير السليم أو الجاد، فكثيراً ما سمعتا جيمس يقول إن اللاتي يقبلهن الفرقة هن الفتيات الانكليزيات الشراوات ذوات السيقان الطويلة.

وفجأة تلاشى الضحك وتلاشى الأمل المتصاعد عندما تذكرت مارييل أن ليس عندها جواز سفر. وأخذت الفتاتان تفكران بقلق في هذه المشكلة الجديدة. وبدا الأمر وكأنه بسيط، مجرد جواز سفر، يمكن الحصول عليه بسهولة. لكن لم يكن هناك متسع من الوقت. وتلك الفتاتين عناد وتحمذ، وتبرمتا من القيود الروتينية الرسمية وقد عبرت شارون عن ذلك قائلة لصديقتها:

«تباً للقيود! استخدمى جواز سفري فنحن متشابهتان بحيث يمكننا استعمال نفس الصورة ويمكن التأثير على السيدة غلوري لتفديك على أنك شارون شين. هيا افعلى هذا وأراهنك على نجاح الفكرة، طالما كنت تضمنين زيارة خالتك في وارسو».

وهكذا وجدت مارييل نفسها في الدولة التي علمتها أمها أن تحبها عن طريق وصفها لها، فكانت كطفلة تتخيل نفسها وهي تصحب

والدتها في زيارتها لمنزل الأسرة الكبير في الميدان الذي قضت فيه طفولة سعيدة مع والديها وأختها الصغرى صوفي، التي كانت والدتها تؤكد بأنها تتصف بالحيوية الجامحة. وبينما كانت مارييل تتجول في الشارع بدون أن تلتفت للمرور إطلاقاً، كانت تذكر ملامح أمها الحبيبة، فحتى تلك اللحظة، أي بعد انقضاء ستة أشهر على وفاتها، لم تتقبل مارييل فكرة عدم سماع ذلك الصوت العذب الهادي، وعدم إمكانها تبادل الذكريات الحلوة المرة معها عن تلك المدينة التي أحببتها، وعن والد مارييل الذي أحبه الأم، منذ أول لقاء لها. ومما زاد من ارتباطها به وقوع الحرب وكان تشارلز مور قد درس الحقوق في جامعة انكلترا وأتاحت له المنحة الدراسية التي حصل عليها أن يتابع دراسته في أوروبا. ولما كان مهتماً اهتماماً خاصاً بالنظام القانوني في بولندا، قرر أن يقضي كل المدة المحددة لبعثته الدراسية في وارسو. وبمجرد وصوله إليها تعرّف على إيغا، الفتاة التي أصبحت فيما بعد زوجته. وفي غضون ستة أشهر من السعادة والهناء نما حبها وازدهر في المدينة التي كانت تردد ألحان شوبان العاطفية معتبرة موسيقاه نبضاً للشاعرية الهادئة في ألحان أعظم أبنائها. وفجأة وقعت بولندا فريسة للغزاة. وحاول تشارلز أن يهون من مخاوف إيغا التي شعرت بعدم قدرتها على التكيف في وطن جديد واحتلالها لفراق أسرتها. ولما كان ولاؤه مرتبطاً بوطنه وولاؤها مرتبطاً به، أصرّ على أن تبقى بجواره لتوفر له الراحة والحب، اللازمين للرجل الذي يخوض غمار الحرب، وبطريقة لا تعرفها مارييل، فرّ الزوجان إلى انكلترا حيث انضم تشارلز إلى السلاح الجوي في وطنه. إلا أن زواجهما السعيد لم يطل به الأمد فأنتهى بعد

سنة واحدة بوفاة الزوج في العمليات الحربية تاركاً وراءه أرملة شابة في بلد غريب ومعها طفلة رضية.

وفجأة صحت مارييل من تأملاتها وذكرياتها على صوت آلة تيبه سيارة يفودها شخص عصبي، فأسرعت في خطاها لتبتعد عن طريقه. وبينما هي سائرة انتابتها نوبة من خيبة الأمل، ألم يبق شيء من المدينة الساحرة التي أحبها والدها؟ بدا لها أن الموسيقى الوحيدة الباقية هي وقع الأقدام على الأسفلت الصلب. أما أقرب شيء للشعر فكان السجع المكتوب على اللافتات المهملة. وأدركت الحقيقة وهي عدم وجود أي شيء ساحر في تلك المدينة على الإطلاق. وهزت كتفيها ونظرت إلى الورقة التي كانت تطبق يدها عليها. وحسب الوصف الذي أعطي لها، كان العنوان المكتوب في الورقة على مسيرة عشرة دقائق من حيث كانت.

ومما أثار دهشة مارييل اكتشافها أن العنوان الذي معها كان عنواناً لمصنع. ومع ذلك اجتازت البوابة ومشت بين جموع النساء اللاتي كن في طريقهن إلى الكاتين لتناول وجبتهم. وأخيراً لمحت مكتباً بدا لها وكأنه مخصص للاستقبال، فدخلته وهي ما زالت ممسكة بالورقة المدوّنة عليها العنوان وكأنها وثيقة مرور تبيح لها الدخول. فسألها شاب باللغة البولندية وهو ينظر إليها بدهشة:

«هل من خدمة أسديها إليك؟»

فردت عليه قائلة وهي تحمد الله على بعد نظر والدتها وإصرارها على تعليمها تلك اللغة التي أتقنت الكلام بها بطلاقة:

«نعم... أريد خالتي صوفي ياروسكا وقد أعطي لي هذا العنوان فإذا كانت تعمل هنا، أرجو أن تسأل لي عن الموعد الذي تنتهي فيه من

عملها حتى أنتظرها في الخارج».

فارتجفت شفتا الشاب وهو يقول لها:

«لا داعي لذلك، فخالتك هي إحدى مديرات المصنع ويسيتها أن تترك ابنة شقيقتها تنتظر في الخارج، فإذا تبعيني سأصحبك إلى مكتبها».

وتبعته الفتاة وهي مشدوهة في صمت صاعدة وراءه السلم. كانت والدتها قد اعطتها فكرة عن صلابة رأي خالتها. أما أن تكشف أن شقيقة والدتها الرقيقة اللطيفة هي رئيسة لقطاع صناعي فهذا ما لم تتوقعه إطلاقاً. ومع ذلك تمالكت مشاعرها المضطربة وقالت للشاب وهو يمد يده ليفتح مقبض الباب:

«أرجو ألا تعلن حضورى فإنى أريد أن أفاجنها بزيارتي».

وبالأدب البولندي المعروف احترمت رغبتها وصك كعبي حذانه معاً وانحنى لها قائلاً بابتسامة تتم عن فهمه لموقفها:

«كما تريد».

وانتظرت مارييل حتى وصل الرجل إلى نهاية السلم قبل أن تفرع على زجاج الباب المؤدى الى المكتب. وعندما سمعت الاذن لها بالدخول عبرت عتبة الحجر وأغلقت الباب وراءها بحذر، ورأت سيدة جالسة وراء مكتب كبير وهي منهمة في أكداس الأوراق التي أمامها. ولما لم تلتفت إليها بمجرد دخولها، انتظرت مارييل وقد أطبقت يديها بشدة من القلق. وأخذت مارييل تتأمل تلك السيدة وتحاول أن تجد تشابهاً بين والدتها الرقيقة ذات العينين الهادئتين وبين تلك السيدة التي تجلس امامها.

وقالت في نفسها إن أمها لا تستطيع أبداً القيام بهذا العمل الذي تقوم به خالتها بالكفاءة البادية عليها. والغريب أن وظيفة إدارة

المصنع كانت ثلاثها أكثر من ملامتها لأي رجل يقوم بالعمل نفسه.

وتنهت من تأملاتها على صوت خالتها وهي تقول لها:

«الآن وقد انتهيت من التأمل في شخصي بهذه الدقة، هلا أخبرتني عما تريد»؟

وروقت السيدة لتدور حول المكتب ثم استندت إلى أحد أركانها بينما أخذت تبحث عن الثقب لتشعل سيكارتها.

وكان ثوبها الصوفي الرمادي يصل إلى حافة حذائها الطويل المصنوع من الجلد الرقيق الناعم. وكان يلتف حول خصرها الدقيق حزام أحمر يضاهي لون القلادة الحريرية المعقودة تحت ياقة ثوبها بأناقة وحنكة، وقد أشارت ملابسها الى أنوثتها الراقية التي لم يسلب نجاحها في العمل شيئاً منها.

ولما حانت ساعة التعارف وجدت مارييل صعوبة كبيرة في النطق. ومع ذلك سعلت قليلاً لتساعد صوتها على الخروج من حلقها وقالت بعد أن رأت خالتها وهي تقطب جبينها تيرماً بموقفها:

«أنا مارييل مور، ابنة أختك، قادمة من انكلترا، وسبق لي أن أرسلت لك خطاباً عندما توفيت والدتي لكنك لم تردني عليه».

وجاء دور خالتها في البحث عن كلمات تقولها، فبدت عليها الدهشة والشك بينما انتظرت مارييل بقلق شديد رد فعلها الذي جاء فجأة، إذ انبعثت منها شهقة عميقة مشحونة بالمشاعر القوية ومدت إليها ذراعيها لتحتضنها بلهفة وهي تقول:

«ابنة إيفا ابنة أختي الحبيبة»

وجرت مارييل إلى ذراعي خالتها الممتدتين نحوها. ولفترة دقائق، اختلطت الضحكات بالدموع وجمعت بينها روابط الحب الأسرية.

تستعيدها لم تكن كلها سعيدة.

وأخيراً قالت مارييل:

«لماذا لم تردي على خطابي يا خالة صوفي؟ كتبت إليك بمجرد وفاة والدتي لشعوري بأن هذه رغبتها. ولما لم أتلق منك رداً بدأت أقلق، وافترضت أنه ربما اعترضت الرسالة ظروف منعتها من الوصول إليك، مثل تغيير العنوان أو ضياعها في الطريق. ولم أتحمّل فكرة جهل الفرد الوحيد الباقي على قيد الحياة من أسرة امي بخبر وفاتها».

وكانت يدا صوفي ترتجفان من الانفعال وهي قد بدت لتأخذ سيكارة أخرى من علبتها. محاولة تفادي نظرة مارييل المتسائلة. ولم يفلح الدخان المتصاعد من فمها في إخفاء نظرتها التي تدل على الخجل والقلق. وأخيراً قالت وهي تحاول الاعتذار عن تصرفها وتبريره:

«أسفة لعدم ردي عليك. والواقع كنت أنوي الرد. لكن الخبر أزعجني في بادئ الأمر فبقيت أياماً لا أقوى على شيء غير استرجاع الأشياء الصغيرة التي أذكرها عنها. طريقة بريق عينيها عندما تبسم، وروحها المرحة، وخفة ظلها، وحرصها على مساعدة المتعبين. كنت في طور المراهقة عندما غادرت الوطن إلى انكلترا إلا أن روابط العاطفة بيننا ظلت قوية حتى صدمني موتها صدمة شديدة».

وارتجفت شفتا مارييل من التأثر، وكانت على استعداد لقبول شرح خالتها واعتذارها بدون الحاجة إلى المزيد من الكلام، إلا أن صوفي رأت أن تسترسل في كلامها، فامتقع لون وجنتيها وهي تضغط على نفسها لتكون صريحة مع الفتاة ذات العينين الرماديتين اللتين تشبهان عيني شقيقتها، لذا تلعثمت في كلماتها واعترفت قائلة بصوت خافت:

حينئذ اختفى تماماً قناع صوفي المتغطرس، عندما أمسكت مارييل على بعد ذراعيها لتتأمل ملامحها بنهم باحثة عن التشابه الموجود بينها وبين أختها الكبرى التي أحبها حباً كبيراً. وطمتم تقول: «نعم، أراها فيك، ورثت عنها شعرها الفاتح وعينيها الرماديتين ولامع وجهها الدقيق. كما تشبهينها في قوامك المشوق الرشيق».

ثم أمالت ذقنها بأصابعها الرقيقة وقالت:

«ومع ذلك أرى في هذا الفم أنثراً للعناد الذي لا بد ورثته عن والدك، إذ لم يستطع غير والدك بإرادته القوية أن ينجح في إبعاد شقيقتي العزيزة عن كل ما اعتادت عليه وأحبته لتواجه الحياة في بلد غريب عليها».

فقال لها مارييل وقد لاحظت عنف كلمات خالتها، محاولة الوقوف موقف المدافع عن سمعة أبيها:

«لقد ربط بينها حب شديد».

وردت عليها خالتها بسرعة قائلة:

«أعلم ذلك، كما يعلم الجميع أن كلاً منهما كان ملانياً للآخر. وكان جيهما كالمصباح الذي أضاء تلك الأيام التعيسة وألقى نوراً على المحيطين بهما. لذلك كان الجميع على استعداد لمساعدتها على الفرار. وعندما تسرب إلينا خير وصولها سالمين إلى انكلترا، أقيم احتفال أذهل الألمان فتحيروا من أمرنا، وحاموا حولنا يحاولون معرفة سبب هذه الأفراح».

وضحكت الخالة عندما استعدت هذه الذكريات وشاركتها مارييل في ضحكها ولكنها شعرت بغصة في حلقها. لقد كان سلوك خالتها لطيفاً إلا أنها شعرت بأنه متفعل، وكان الذكريات التي

«غضبت في قرارة نفسي من والدك لقيامه بما اعتبرته في ذلك الوقت عملية اختطاف لشقيقتي، ومررت على أوقات لمته فيها بمرارة على الوحدة القاسية، والأسى القاتل للذين عانيت منها. واشتد شعوري هذا فكرهت ذكراه حتى بعد موته».

وشهقت مارييل من الكلمات المؤلمة، وأخيراً اعترفت المحالة قائلة: «كنت مخمّنة وعرفت ذلك الآن، كان في وسع إيفا العودة إلى وارسو بعد الحرب لكنها رفضت ذلك قائلة إنها وجدت في انكلترا عزاء في المنزل حيث أقاما. وحينئذ فقط بدأت أدرك شيئاً عن مدى حبها لبعضهما».

وتراجعت مارييل خطوة إلى الوراء وهدت بعينين مלאها الألم وقالت تدين خالتها:

«كنت تشعرين بالغيرة من أختك ولم تهتمي بالكتابة إليّ لأنك شعرت بأنني أنا أيضاً استحوذت على مكانك في حب والدتي. ظللت سنوات اتقن مقابلتك، خاصة بعد موت والدتي لأنني ظننت بسذاجتي أن وجودك قد يساعدني على تحمل فراقها، ولكن الآن...»

وسكتت مارييل عماً كانت تود أن تضيفه من عتاب لخالتها. واستدارت متجهة نحو الباب، ثم توقفت عند عتبه عندما توصلت إليها خالتها قائلة والدموع واضحة في عباراتها:

«إنني أستحق الازدراء يا مارييل وأعترف بكل الكلمات التي صدرت منك، فأرجو أن تصدقيني عندما أقول إنني أسفة، وأن محاولي العفو عني».

ولو لم تكن مارييل ابنة أمها لما استسلمت لهذا النداء الصادر من القلب، فقد ألمها استعداد خالتها لتجاهل وجودها، لكنها كانت

تشعر بالوحدة، فلم تستطع الاستغناء بسهولة عن حاجتها للحب الذي أظهرته خالتها نحوها في تلك اللحظة.  
وببطء تراجعت مارييل من الباب، وأدارت وجهها نحو خالتها، ثم ارتقت في أحضانها مبدية بذلك عفرها عنها.

www.rewity.com

## ٢ - بداية الهرب

كان منظر نادي عقد الورد حيث ستفتح الفرقة عملها، متواضعاً عادياً في وضخ النهار. إلا أن مارييل لم تلاحظ منظر واجهته الكتيبة عند دخولها بسرعة من الباب الخلفي وهي مشغولة البال بمشكلة تأخيرها في الحضور. فبالرغم من بساطة السيدة غلوري في بعض الأمور إلا أنها حاسمة فيما يتعلق بالعمل. أما بخصوص الأعداء بسبب التأخير فكانت تقابلها باستياء شديد، بل توقع الغرامات في بعض الأحيان.

ولحسن الحظ كان الموعد المحدد لظهور فريق الراقصات هو في الليلة التالية. أما في تلك الليلة، فكانت للفتيات الحرية في التصرف في وقتهن والقيام بأي شيء يحلو لهن، في حدود المعقول طبعاً. وبالرغم من نصيح السيدة غلوري لهن بالنوم المبكر إلا أنهن صمن على حضور الحفل النهائي لنجم الفرقة الذي كان يجذب إلى المسرح جموعاً كبيرة من المتفرجين في الستة أسابيع السابقة.

وكانت غرفة تغيير الملابس خاوية حين وصلت مارييل إليها. وعندما سمعت صوت البيانو أتياً من جهة المسرح تأكدت مخاوفها وعرفت أن التمرين قد بدأ بدونها. وبسرعة فائقة بدأت في ارتداء ملابس التمرين ثم قطبت جبينها حين تذكرت أن هناك مواضيع كثيرة يجب بحشها مع خالتها وذكريات تحتاج إلى مراجعتها معها. إذاً لماذا صممت خالتها على عودتها إلى النادي الليلي بدلاً من البقاء معها والتحدث إليها؟

«أخيراً قررت أن تشرفيننا بحضورك؟»

هكذا قالت السيدة غلوري فأنتفضت مارييل من الدهشة عندما انفتح الباب فجأة وظهرت فيه تلك السيدة، ووقفت بعصبية على العتبة وبسرعة قدمت لها مارييل اعتذارها قائلة:  
«إنني جد أسفة يا سيدتي، حاولت الحضور في الموعد المحدد لكنني ضللت الطريق. أعدك ألا أكرر ذلك مرة أخرى. ومع ذلك فقد تأخرت دقائق معدودة فقط».

وصدرت منها تهيدة تتم عن ارتياحها عندما لاحظت أن ملامح السيدة غلوري لانت بعض الشيء. فقد كانت السيدة غلوري نفسها عضواً في فريق دولي للرقص، وكانت تعرف مدى انبهار الراقصة المبتدئة بالمدن الجديدة.

«لا بأس يا شارون، سأسمح لك هذه المرة بشرط ألا يتكرر ذلك مرة أخرى. أتفهمين؟»

وبحرج أومأت مارييل رأسها للتعبير عن موافقتها. وكعادتها دائماً كانت ترحف من الداخل كلما ناداها أحد باسم شارون. فكان الخداع الذي قمارسه على رئيسها الجديدة الطيبة كريهاً على نفسها.

وامتدت التمرينات طيلة بعد الظهر، وكانت السيدة غلوري في أثنائها بادية التذمر من أداء الراقصات، كما كانت حريصة على ضرورة اتباعهن للحركات المطلوبة. لذا كان الاجتهاد بادياً على الفتيات عندما انتهت فترة التمرين واشتدت رغبتهن في الوصول إلى غرفهن في الفندق القريب لراحة أقدامهن المتعبة قبل الخروج ثانية في المساء للترفيه والنزهة.

وكانت مارييل محظوظة، فبينما هي تخلع حذاءها وتستلقي على سريرها للاسترخاء حمدت ظروفها التي لم تعطها زميلة في الغرفة

تضايقها بشرتها الدائمة. لأنها في حاجة إلى التفكير في مسائل كثيرة تدور في ذهنها وتحتاج إلى تسيق حتى تقدمها إلى خالتها حسب تسلسل أهميتها.

وأفاقت منزعجة على مظهر غرفتها وقد أخذ الليل يرخي عليها سدوله وخافت أن تكون قد تأخرت في النوم. وبسرعة نظرت إلى ساعتها وأدركت أن لديها عشرين دقيقة فقط تستعد فيها. فجرت مارييل إلى الحمام وفتحت الدش واختطفت بعض الملابس الداخلية من أحد الأدراج وأخذت تعقص شعرها وتضعه تحت طاقة الحمام ثم قلبت في خزانها لأختيار الملابس التي سترتديها في الخارج. وأخيراً وصلت إلى النادي الليلي قبل الموعد المحدد بدقائق وقد بدت عليها الأناقة والمظهر الجميل فمشت بخطوات متباعدة بغير كلفة أو تصنع. ووقفت سيارة خالتها أمام الباب في نفس الوقت الذي وصلت هي فيه إليه، ونزلتا معاً الدرجات الحجرية المؤدية إلى القبول الكبير الذي جرى تطويره إلى ناد ليلي.

وعندما دخلتا إلى النادي استاءتا من الضوضاء الصادرة من الطاولات المزدهمة بالرواد والملتفة حول حلبة الرقص الصغيرة.

وكانت اللوحات الزاهية تغطي الجدران بينما التفت عقود النباتات حول زجاجات الشراب الحمراء والخضراء المعلقة على الجدران بطريقة تعكس ضوء الكرة السحرية الدائرة والمعلقة في سقف القاعة. وكان الخدم، يدورون بمهارة وخفة حول الموائد التي يجلس حولها الضيوف وعيونهم مثبتة على حلبة الرقص وهم يحتسون شراباً يكفيهم مدة طويلة. وكانت الموسيقى تعزف وتهبى، خلفية ملائمة للمكان بألحان خافتة تتفق وروح الترقب المخيمة على الجمهور.

وفجأة أطفئت الأنوار تاركة حلقة من النور مسلطة على منتصف حلبة الرقص، وهذا الجمهور والتزم الصمت ثم انفجر في تصفيق عصبي عندما انسل رجل من الظلال المحيطة بالحلبة وظهر وسط حلقة النور. ولم تكن هناك مقاعد خالية في القاعة. وكان مكان الوقوف مكتظاً بالناس لذا كان من حظ مارييل وخالتها أن يسمع لها بالوقوف في مقدمة الدائرة الخارجية للمتفرجين. وحتى من تلك المسافة شعرت مارييل بقوة شخصية الرجل. فمن قمة رأسه ذات الشعر الأسود الفاحم حتى قدميه، ومن كل عضلة قوية في جسمه كانت تشع جاذبية فطرية بوهيمية.

ويدون مبالاة بالأعين المتعلقة بكل حركة من حركاته سحب كرسيّاً صغيراً ووضع قدمه عليه ثم أسند منكبته فوق ركبته المرفوعة، وببساطة أخذت أنامله الدقيقة تداعب أوتار الغيتار المعلق في رقبته برباط أحمر زاه من الشاموا. وكان نفس اللون يتكرر في الغلالة التي يلبسها الفجر حول رقابهم القوية. وكان يلبس قميصاً أبيض من الحرير له أكمام منفوخة ومزرومة عند المعصمين، وللقميص فتحة مدبية من أسفلها تصل إلى الحزام الأحمر العريض الذي يطوق خصره. ويكمل ملبسه بنظون أسود ضيق قد يبدو على غيره كأنه بدعة تشيلية لكنه يجعله يبدو غجرباً أصيلاً ذا كبرياء وشم.

وأخذت أنامله الرقيقة تعزف الألحان. وبعد أن جال بنظرته الساخرة بعض الشيء حول جمهوره المتحمس له، بدأ في عزف لحن عاصف جميل أثار به المشاعر. ولمدة ثلاثين دقيقة لا تنسى استجاب لرغبات المستمعين. وبدأ أثر غنائه على المستمعات فأثارهن بسحره ودفعهن إلى الانفعال لدرجة البكاء، كما أثار على الرجال ودفع الدعاء في عروقهم.

والذكريات الحلوة تجول في مخيلتهم عن مواقف وغزوات كلها حم  
وقوة ومجد. وعندما بلغ بهم الانفعال ذروته حرمهم من سحر فرحتهم،  
وسلبهم تشوتهم، بالانتهاج فجأة من أغانيه والاتسحاب من حلقة التور  
ووقف الجمهور على أقدامه مطالباً بزيد من الأغاني. وبلغ الحماس  
الذروة عندما عاد الرجل للظهور ثانية، وتوقف برهة وقد رفع حاجبه  
بكبرياء وبدت حركة مرتجفة حول شفثيه وانتظر حتى هدأ الصخب  
وخيم السكون على المكان، ثم انحنى من خصره وحيا الجمهور مودعاً  
إياه بلغة الفجر قائلاً:

«والآن أترككم في رعاية الله».

ولم تهدأ عاصفة التصفيق إلا بعد بضعة دقائق استطاع الجمهور  
بعدها أن يتابع الحديث فيما بينه. وانتظرت مارييل وكلها تساؤلات،  
ومع ذلك ضغطت على مشاعرها بشدة بحيث بدت اللهفة في صوتها  
عندما سألت خالتها قائلة:

«من هو يا خالتي صوفي؟»

وابتسمت الخالة وقالت:

«اسمه روم بورو وهو نجم دولي من نجوم النوادي الليلية  
المشهورين والمحبوبين من الملايين في جميع أنحاء أوروبا».

وقطبت مارييل جبينها وقالت:

«ولماذا لم أسمع به قبل الآن؟ فلندن هي مركز أصحاب المواهب من  
أمثاله، وحسب معلوماتي لم يظهر هناك مطلقاً».

«لا أظن أنه يريد الذهاب إلى هناك إلا إذا شعر برغبة أكيدة في ذلك،  
فهو يعمل فقط في الزمان والمكان اللذين يحلوان له، انه غجري أصيل  
من الذين لا يعرفون حدوداً. كل دولة هي دولتهم وهم يحتقرون فكرة

الحدود التي تفصل بين الدول. قد يظهر في باريس أسبوعاً ثم  
ينتقل إلى بودابست لمدة أسبوع آخر وبعدها بقليل يظهر في روما.  
حاول مديرو النوادي الليلية في أوروبا أن يأخذوا منه الوعود  
للظهور لديهم في تواريخ محددة، لكنه يرفض كل هذه العروض.  
فالفجر دائم الترحال و روم وفي لقبيلته مائة في المائة، وأفراد  
قبيلته أوفياء له. كما يدل على ذلك معنى اسمه روم بورو أي  
الرجل العظيم. وهو تكريم من جنس يؤمن بأن كل إنسان حر ويعترف  
بصفات الرجال العظماء ويمدح البارزين منهم».

وانتظرت الخالة لحظة لتعطي ابنة أختها الفرصة كي تستوعب ما  
قالته قبل أن تضيف قائلة:

«هل تريدن التعرف إليه؟»

وانتاب مارييل ذهول من شدة السعادة التي تركها البرنامج  
المثير في نفسها، واحتاجت لبعض الوقت لتتالك نفسها وتستوعب  
معنى سؤال خالتها. وعندما ردت عليها كان احمرار وجهها ولطفتها  
للقاته أكبر دليل على رغبتها في الاستجابة لخالتها التي ابتسمت  
وقالت:

«تعالى!»

ومشت أمامها في طريقها إلى الكواليس، ومرتا بين المناضد المكتظة  
بالمشاهدين الذين تباطأوا في ترك ذلك الجو المفعم بالنشوة والحماس،  
وكادتا تصلان إلى الباب المؤدي إلى غرفة ملابس الفنان عندما سمعتا  
صوتاً ينادي صوفي. وكان عالياً قوياً متمشياً مع مظهر صاحبه. وهو  
رجل طويل القامة يلبس زي ضابط روسي ذي رتبة عالية، انتصب  
واقفاً وانحنى احتراماً لها بينما أخذت عيناه تلتهاجان كل تفاصيل مظهر

ارتبكت صوفي لوجوده وقالت:

«لم أتوقع أن أراك هنا هذه الليلة يا سيرجي».

وبدا الحرج في صوت صوفي عندما واصلت كلامها قائلة:

«أقدم لك يا مارييل صديقاً حميماً لي هو الرفيق إيفانوف الذي سبق أن عاونني كثيراً في الماضي وحلّ لي كثيراً من المشاكل المتعلقة بالقوانين الصارمة الخاصة بإدارة المصنع».

وكانت كلمات المجاملة التي قالتها صوفي توحي لمارييل بالحذر الذي لم يفت عليها. إذ بدت صوفي خائفة من ذلك الرجل الذي تشبه نظرتة نظرة الحية. كما كانت نظرة صوفي تحمّل مارييل ألا يكون رد فعلها مجافياً له.

وللأسف تجمع طيش الشباب مع التربية المتحررة التي اعتادت عليها مارييل، ولم تعجبها غطرسة الرجل، لذا كانت التحية بينها باردة ومختصرة. فبدت على ملامحه علامات عدم الرضى، إذ اعتبر أن كرامته قد أهينت، ولم يخفف الموقف قول صوفي وهي تبدد الصمت الذي ساد بينها:

«هذه هي مارييل ابنة أختي وهي انكليزية».

وعضت الخالة على شفيتها عندما شعرت، من الدهشة التي ارتسمت على وجه مارييل، أن عبارتها بدت وكأنها اعتذار. «الآن وقد انتهى العرض يا عزيزتي. شارون أرجو أن تنصرفي وتأوي إلى فراشك مبكرة».

قالت ذلك السيدة غلوري وهي تجمع فريق راقصاتها وتعرض على مصلحتهن. ولم تلاحظ وقع القبلة التي فجرتها بدون قصد.

وتساءل سيرجي بيقظة واهتمام يعتبر أكثر من حب استطلاع:

«شارون؟»

«إنه اسمي المسرحي».

هكذا أسرع مارييل في تصحيح الخطأ الذي أخرجها وفضح سرها، لكنها لم تفلح في إخفاء خوفها الذي بعث قشعريرة باردة في كل أجزاء جسمها. وقبل أن تضيف السيدة غلوري شيئاً إلى كلامها وتفصح عن المزيد من سرها قالت مارييل:

«اعطني مجرد عشر دقائق أنصرف بعدها».

ووافقت السيدة العجوز على طلبها فأومات برأسها وانصرفت باحثة عن غيرها من الراقصات وتبعتها مارييل وهي تقول لخالتها:

«لا تتأخري يا خالة صوفي، فليس لدي وقت طويل».

وعندما لحقت بها الخالة بعد ذلك بشوان كانت ترتجف من الخوف والغضب.

وكان باب إحدى غرف الملابس الخالية مفتوحاً فدفعتها صوفي داخل الغرفة وقالت:

«والآن أرجو أن تشرح لي موقفك».

وأسندت الخالة ظهرها إلى الباب المغلق وقالت وقد تملكها الغضب:

«تكلمي»

إلا أن مارييل هزت كتفيها، إذ شعرت أن الحقيقة ليست بالفضاعة التي تصوّرها خالتها نفسها، ولم تر مانعاً من إطلاع خالتها على القصة التي دبرتها الصديقتان معاً كمخرج لموقفها من العمل في الفرقة.

وعندما انتهت من سرد قصتها امتقع وجه الخالة بشكل جعل

الخوف يسيطر على مارييل خاصة عندما قالت خالتها:

«أيتها البلهاء المتهوره، عديمة التفكير!»

وبدا الخوف يتملك قلب مارييل حتى وهي تعترض على هجوم خالتها:

«أنت شديدة القسوة عليّ، فكل ما فعلته أنني استعرت جواز صديقتي ولم أتسبب في أي ضرر لأحد.»

«في البلاد التي تحتلها روسيا لا يجوز أن يستعير أحد جواز سفر غيره، ولا بد أنك تجهلين طريقة معيشتنا، فإذا ظننت أن هذه المغامرة ستقتصر على مجرد التأنيب، ونصحك بعدم تكرار الحادث مرة أخرى فأنت مخنطة، ففي هذه اللحظة بالذات لا بد وأن سيرجي إيفانوف يحقق مع الذين تعاقدوا معك للعمل. وإذا ظهر أي أثر للشك في ظروفيك سيستجوبونك لفترة طويلة.»

وضحكت مارييل بعصبية، كانت الصورة التي اعطتها خالتها مبالغاً فيها، بحيث بدت لها وكأنها قصة تمثل على المسرح ولا تستحق أن تؤخذ مأخذ الجد. إلا أن ضحكها كان له وقع سيء على خالتها، فظهر على وجهها تعبير لم تستطع مارييل تفسيره. وبعصبية دفعت الخالة مارييل دفعاً خارج غرفة الملابس ومشيتا في الممر الذي تقع فيه الغرفة الخاصة بنجم الملهى والتي يتجمع الناس حول بابها أملاً في رؤية نجمهم المحبوب.

ورأت مارييل رجلاً قوياً يقف بالباب ليحرسه، وقد ضم ذراعيه على صدره العريض، وعبرت عيناه عن تيرمه بالمتفرجين المتجمعين حول الباب. ولدهشة مارييل لاحظت أن الحارس ابتسم مرحباً عندما وقع نظره على خالتها صوفي. وعندما أومأت برأسها نحو غرفة

روم بورو متسائلة عما إذا كان في الداخل، تقدم الحارس وأدخلها الغرفة بعدما تأكد أن أحداً من المعجبين لم يتسلل من تحت ذراعه.

كانت الغرفة خالية لكنها سمعتنا صوت أدراج تصفق وصوت صفارة بلا نغم تتخللها أصوات تنم عن التبرم والرغبة في السرعة في اللبس وكانت الخالة تحاول أن تكبت عصبيتها واهتمامها الشديدين عندما قال مارييل:

«اعطني عشر دقائق معه بمفردي، وسأقدمك له فيما بعد... هناك شيئاً هاماً يجب أن نبحثه معاً.»

ولم تنتظر جواباً من مارييل بل طرقت بشدة الباب الذي انفتح فوراً وجاء صوت يقول:

«حبيبتي!»

ولما صدرت هذه الكلمة التلقائية من شفطي الرجل، انتابت مارييل نوبة من الدهشة، إذ لم يظهر على خالتها أنها على مثل تلك العلاقة الحميمة مع الرجل كي يناديها باسم حبيبتي.

وبعد ثوان دخلت خالتها إلى الغرفة الداخلية. وبالرغم من محاولة مارييل عدم استراق السمع، لم يفتها بأن لهجة الحديث الذي بدأ بفرحة كبيرة، أخذ الآن طابع النقاش الحاد. فأخذت مارييل تروح وتجيء في الغرفة الخارجية محاولة ألا تستمع لصوت خالتها المستعطف. وفي الوقت نفسه كانت تتساءل عن تلك الخدمة التي كان الرجل يرفض تقديمها إليها. ولاحظت أن صوت خالتها أخذ في الارتفاع التدريجي وهي تصرّ على مساعدته إياها في مشكلتها، إلا أن نبرة صوته ظلت ثابتة. ومما زاد في انتباه مارييل وجعل أذنيها تسترقان السمع، أنه مكتومة صدرت عن خالتها وصلت إلى مسمعها بوضوح

لا ريب فيه. لقد كانت خالتها تبكي! وكانت دهشة مارييل عظيمة. بحيث تسمرت في مكانها لا تستطيع حراكاً. ولكن عندما سمعت تلك الأنة قررت أن تتصرف وتتدخل في الأمر فسواء كان روم بورو مشهوراً أم لا، فلا بد أن يحاسب على تصرفاته.

وبلغ بها الغضب درجة لم يجعلها تتردد في فتح الباب دون استئذان في اللحظة التي رآته فيها يمسخ دموع خالتها بمندبل كبير، ويقول لها وهو يرفع ذقتها بأصابعه، وينظر في عينيها المملتين بالدموع: «لا بأس يا حبيبتي، سأفعل ما تريد، لكن تذكرني أنني أؤدي هذه الخدمة من أجلك فقط، وليس لأنني أشعر بالعطف نحو تلك البلهاء التي تتوسلين من أجلها».

حينئذ تراجعت مارييل بدون أن يلحظ وجودها ولم تفهم شيئاً من كلماته، إلا أن النظرة التي بدت في عيني خالتها أوضحت لها كل شيء. فقد شع الحب الشديد في عينيها وعلى شفيتها اللتين تتصفبان في الظروف العادية بالجمود، أما الآن فقد كانتا ترتجفان انتظاراً لقبالاته. ولم تشأ مارييل أن تنتظر حتى ترى إذا كانت دعوة خالتها نالت استجابة الرجل الواقف معها.

وأثناء انسحابها بسرعة تعثرت بكرسي كبير أحدث صوتاً مدوياً بوقوعه على الأرض، فركضت عبر الغرفة محاولة الهرب لكن عندما وصلت إلى الباب نادتها خالتها قائلة:

«لا تذهبي يا مارييل، أريد أن أقدمك إلى صديق عزيز وحميم جداً لي».

اضطرت مارييل أن تتصرف النظر عن فكرة الهروب واستدارت يضجر لتتعرف بالرجل الذي اتضح أن له مكانة كبيرة في حياة

خالتها.

«هذه، يا عزيزي روم، مارييل مور ابنة أختي، وهي قادمة من انكلترا. فبعد أن حضرت حفلاً واحداً لك أصبحت إحدى المعجبات بك أليس كذلك يا ابنتي؟»

فبلعت مارييل ريقها بصعوبة وردت على خالتها بعد أن فهمت منها نوع الاجابة التي تريد سماعها. «بالطبع... لقد كان عرضك رائعاً جداً».

فانحنى لها وقال بلهجة انكليزية سليمة لكنها جافة إلى درجة التهكم:

«أشكرك يا أنسة مور... إنك حقاً كريمة».

وعندما جال بنظره في وجهها، شعرت وكأنها تلاشت من الوجود. فحتى لو كانت ذبابة أو بعوضة لتركت في نفسه أثراً أكبر، ولظهر بعض التعبير على ملامح الفجري الذي بدا عليه الملل. وضحكت خالتها معلقة على كلامه:

«أنسة مور؟ كلا... لن أسمع لك بهذا النداء، فلا يجوز لقريبتني الوحيدة أن تعاملها بهذه الطريقة الرسمية المتكلفة... وأنا أصر على أن تتادياها باسم مارييل».

ثم وجهت الكلام لابنة أختها قائلة:

«وأنت كذلك... يجب أن تتاديه باسم روم».

وتعجبت مارييل من نظرة خالتها للأمور، فإن معارضة روم بورو كانت واضحة وشعرت هي بأنه يبذل مجهوداً كبيراً ليبدو مهتماً بها. وبالرغم من عدم شعورها بالغرور، هالها أن تصادف لأول مرة في حياتها اهتالاً تاماً بشخصها وجمالها الذي لا ينكره أحد.

غير أن رقة رده كانت دليلاً على نفوذ خالتها عليه إذ قال:  
«إذا كان هذا يسعدك سأناديها باسم مارييل بشرط ألا تعترض ابنة  
أختك على ذلك».

وبسبب النظرات التي تحولت إليها، اضطرت مارييل إلى أن  
تستسلم لكلامه بهدوء، وقالت متعجبة من المرح السريع الذي أظهره.  
«طبعاً لا اعتراض لدي».

وأظهرت الحالة رضاها عن ابنة أختها، خاصة وقد لاحظت وجنتيها  
اللتين صبغتاهما حمرة الخجل، كما لاحظت ابتسامة روم الغامضة لذا  
أعطت الاثنتين أهمية مبالغاً فيها، وتصورت تطورات سابقة لأوانها،  
فاقترحت عليها قائلة:

«الآن وقد تم التعارف بينكما دعونا نذهب لمكان نتناول فيه الطعام  
ويعطيكما الفرصة لزيادة تعارفكما».

وفي الحال تمتت مارييل بكلمات الاعتذار رافضة اقتراح  
خالتها:

«أسفة يا خالتي، كنت أود أن أكون معكما لكن يجب أن أعود إلى  
الفندق».

ولم تكن مارييل تبحث عن عذر للرفض، فقد تسببت في ذلك  
اليوم في غضب السيدة غلوري بما فيه الكفاية، كما ازداد اعتقادها  
بأن محاولة العجري لمجايلتها والتأدب معها لا بد ستفتر إذا فرضتها  
خالتها عليه أكثر من ذلك. لكنه فاجأها بإصراره قائلاً:

«أعرف مطعمًا مختلفًا تماماً عن غيره في المدينة وهو لا يبعد كثيراً عن  
هنا، لكن يجب أن نذهب بالسيارة وستجدان بعد الأكل أن جودة  
الطعام تبرر الذهاب إلى ذلك المطعم».

وفي الحال عبر الغرفة وأصدر تعليقاته إلى حارس غرفته قائلاً:  
«أحضر السيارة إلى المدخل الخلفي للمسرح يا روبل».

كما أصدر إليه بعض التعليقات الأخرى بلغة لم تفهمها مارييل  
ثم عاد ونظر إلى صوتي قائلاً:

«لقد نفذت طلباتك، فهل أنت راضية الآن؟»

فأومأت برأسها وبدا عليها وكأنها ستنفجر بالبكاء ثانية في أية  
لحظة، لكنها تمالكت أعصابها وبادلتها الابتسامة بأخرى.

أما مارييل فأرتجفت بدون سبب واضح، وشعرت بخوف لم  
تستطع تفسيره، لا شك بأن في الجو شيئاً من الخداع والتأمر، وما معنى  
هذه النظرات الصامتة المتبادلة بين خالتها وبين هذا الصديق  
الغامض؟ وتبرمت من نفسها لهذه الشكوك وحاولت أن تبدد مخاوفها.

ولكن... ترى ما هو الدافع الخفي لدعوته لها على العشاء؟

كان المر مظلماً مليئاً بالظلال، وكادت مارييل أن تتعثر على  
الدرج وهي تتبع خالتها التي يمكن وصف حركاتها الحذرة بأنها كانت  
غامضة. وهمست مؤنبة مارييل بغضب على ارتظام حذائها بالدرج  
الحجري:

«ألا يمكنك التزام الصمت؟ وهل يجب أن يعرف المحي كله أننا هنا؟»  
وعقدت الدهشة لسان مارييل ولم تعلق على كلام خالتها، فلم  
تر مبرراً لأن تتسلل بهدوء من السلم الخلفي لأحد النوادي الليلية. إلا  
أن طلب خالتها كان مطابقاً لتصرفها الغامض، وأصبح الجو متوتراً  
بحيث أنهم عندما وصلوا إلى المر الضيق، وجدت مارييل نفسها  
تقلد تلقائياً طريقة مشي خالتها في الأماكن التي يحجم عليها الظلام.  
وبدلاً من أن تستفسر من خالتها عن سر تحذيراتها الهامسة، وجدت

وكان روم منهمكاً في قيادة السيارة والانحراف بها في منحني  
خطر فلم يرد عليها مباشرة.  
«هل يهك هذا؟»

وردت عليه بعدة ظهرت في نبرات صوتها:  
«بالطبع يهمني، فأنا مرتبطة بالاشتراك في عرض غداً. وسواء رضيت  
خالتي أو لم ترض لا بد أن أكون في حفل افتتاح النادي الليلي. فلا  
تظن أنني لا أفهم خططكما. إن عدم وجود جواز سفري يسبب لها حرجاً  
مع صديقها. لذا قررت أن تبعدني عن طريقه حتى تهدأ هذه  
العاصفة. فهي ترى ضرورة الاحتفاظ بالتفاهم الموجود بينها وبين ذلك  
الشخص المسؤول، حتى ولو كان ذلك على حساب الولاء لأحد أفراد  
أسرتها.»

وأخذت نفساً عميقاً من شدة التأثر وقالت:  
«كيف يمكنها أن تفعل ذلك؟ وكيف تستطيع أية امرأة أن تتعاون مع  
رجل كهذا؟»

وفجأة أدار روم عجلة القيادة بعنف تسبب في ارتطام كتفها  
بجسم السيارة، ولكن غضبها تغلب على مشاعرها بحيث أنها لم تشعر  
بالألم. وبعد أن توقفت السيارة على حافة جزء مزروع من الطريق قال  
لها:

«أهذا ما تظنينه؟ لقد مضى عليك في هذه البلاد ساعات معدودة فقط  
ومع ذلك تتجراين وتعارضين آراء الذين يعرفون من تجاربهم المريرة  
ماذا سيحدث. إن تصرفك هذا مثل تصرف الطفل العنيد يا أنسة  
مور. فبدلاً من تكليفي بمسؤولية تهريبك. يسعدني الآن أن يقع عليّ  
الاختيار للتخلص منك.»

نفسها تطيعها بقلب يسرع في دقاته وهي تأمرها بأن تصحب روم  
بورو في سيارته بينما تقود هي سيارتها وتأخذ معها الحارس روبا.  
ولاحظت مارييل أن روم بورو يضم شفقيه بإصرار وهو  
ينتظر حتى وصلت سيارة صوفي إلى نهاية المسر لتتحرف نحو  
الطريق العام. ومع ذلك لم يبدأ في تشغيل محرك سيارته، ولكن عندما  
مرت سيارة أخرى قادمة من جهة مجهولة لتتبع سيارة خالتها مباشرة،  
بدأت مارييل تشك في عدم بدء روم في تحريك السيارة. توتر  
صوفي وإصرارها على عدم إحداث أي صوت، وعلى الذهاب  
للمطعم منفصلين، كل هذا جعلها تشعر بفطرتها أن سيرجسي  
إيفانوف أعطى تعليقاته لتعقبهم. وفجأة اعتدلت مارييل في  
جلستها عندما فهمت الموقف بهذا فبره. ومن خلال صوت محرك سيارة  
روم بورو كانت تستعيد في ذهنها الكلمات التي سبق أن وجهها إلى  
خالتها والتي وصلت إلى أذنانها عفواً لكن في هذه المرة كانت تفهم  
معناها:

«لا بأس يا حبيبتي، سأفعل ما تريدته لكن تذكرني أنني أسدي هذه  
الخدمة من أجلك فقط وليس لأنني أشعر بالعطف نحو تلك البلهاء  
التي تتوسلين من أجلها.»

إذا كانت هي السبب في استعطاف خالتها له ومطالبته بمعاونتها. يا  
لها من غيبة لأنها لم تفهم هذه الحقيقة من قبل.

وكانت السيارة قد تركت ضواحي المدينة وأخذت تسرع في طريقها  
عبر الأراضي الشاسعة، بينما كانت هي تجمع شتات أفكارها الحائرة  
وأخيراً سألت روم:  
«إلى أين تأخذني؟»

ووقع الصمت بينها كالسيف الحاد، بينما أخذت السيارة تنهب الأرض متابعة سيرها ومختربة عدداً من القرى الصغيرة والمزارع التي تظهر عن بعد في الظلام بنوافذها التي يشع منها النور، وبدأت عينا مارييل تطرفان بينما أخذ التعب ينال منها. وشعرت بتوتر شديد بسبب الأحداث المثيرة التي مرت بها أثناء النهار، إلا أن دفع السيارة وحركتها الرتيبة جعلها تشعر بالرغبة في النوم بحيث لم تستطع مقاومته. وأفادت فجأة عندما تركت السيارة الطريق العام ودخلت في طريق وعر جعلها تهتز بشدة وهي في طريقها إلى الغابة. ولم يبذل روم أي جهد لحمايتها محاولاً التخفيف من سرعة السيارة، بل استمر في طريقه فوق الأرض الوعرة وعلى وجهه تعبير بالارتياح والتشفي. أما مارييل فحاولت أن تحتفظ بتوازنها وصممت على عدم الاعتراض. ولكن عندما داس فجأة على فرامل السيارة شعرت كأن كل عضلات جسمها قد قفزت من أماكنها. وأخيراً قال لها بلهجة امرأة: «سنمشي من هنا».

وتركها تتلمس خطاها بنفسها بين أشواك الزراعة الكثيفة التي أوقف السيارة فيها. وشعرت أنها لو اتهمته بتدبير الموقف الذي وجدت نفسها فيه لأشار بلا شك إلى ضرورة التضليل والتمويه. لذا سارت بمفردها وخرجت من بين الأغصان التي تغلغلّت في كل قطعة من ملابسها وشعرها كما تعثرت ووقعت وهي تمشي وراء روم وقد اختفى عن نظرها بين الأغصان، وأخذت تسائل نفسها بمرارة عن سبب ملازمتها لرجل من هذا النوع في بلد عرف رجاله بالشهامة. ثم أسرع في خطاها عندما سمعت نباحاً شرساً لعدد من الكلاب. وبعد دقائق قادها الطريق إلى مساحة صفت حولها في دائرة ما يقرب من خمس

عشرة عربات من عربات الفجر المغلقة، ورأت عدداً من نساء الفجر جلسن حول النار الموقدة وهن يشرفن على طهو الطعام في قدور تنبعث منها رائحة شهية. وكان المكان موقعاً مسرحياً جميلاً يلائم تماماً النساء الجمالسات فيه. وكان شعر النساء طويلاً أسود لامعاً مصففاً في ضفائر طويلة. أما ملابسهن فكانت طويلة ذات طيات عديدة وصدور عارية، فتحاتها واسعة. وكانت ألوان ملابسهن زاهية متناقضة مع لون أجسامهن السمراء وعيونهن السوداء المعبرة. كما رأت عدداً من الرجال مضطجعين في ظل شجرة كبيرة وهم يتبادلون الأخبار انتظاراً لأن تقدم نساؤهم الطعام. وكانوا يلبسون ثياباً رثة قديمة من نفس طراز الملابس التي كان روم يوروي يلبسها أثناء عزفه. وقد أشار ذلك المنظر خيال مارييل حتى كادت تتصور أن صوت قارعي الدفوف والمغنين سيتصاعد من الدخان المنبعث من النيران.

وعندما حيا روم الموجودين التفت الجميع إليه، وفي لحظة كان محاطاً بالرجال الذين أبدوا فرحهم بلقائه وهم يحيونه ويربتون على ظهوره، كما حيته النساء اللاتي بلغ بهن الحماس ذروته للقاتنه. ودار الحديث بينهم جميعاً بلغة تتخللها الكلمات البولندية لكنها أساساً لغة لم تفهمها مارييل. وللمرة الثانية في ذلك اليوم شعرت بعدم اهتمام الناس بها. بينما أخذ الفجر ذوو المشاعر الملتهبة يتجمعون لتحية روم بوروي بدون الاعتراف ولو بنظرة واحدة بوجود الفتاة النحيلة التي تصحبه والتي وقفت بينهم مثل الزهرة الصفراء الهادئة في حقل مليء بزهرة الحشخاش الأحمر. واستراحت عندما شرح لهم باللغة البولندية قاتلاً:

«لقد اصطحبت معي يا أصدقائي زميلة ستشاركنا رحلتنا، وستكون

في حمايتي ذاتياً، لذا لا تساوركم الشكوك من جهتها، فأرجو أن ترحبوا بها وتحملوا عدم درايتها بطباعنا وعاداتنا.

فالتفتت العيون الحذرة تنقدها، ولم يظهر الموجودون شيئاً مما كان يدور في ذهنهم من ارتياب، ومع ذلك أشعروها بوجود عداء نحوها بعث في نفسها الخوف. ودفعت شابة جموع الملتفين حولها وتقدمت منها لتنظر إليها عن قرب بجرأة وقحة. وبدا عليها أنها تعرف جمال نفسها وهي تقف أمام مارييل بخصرها المتمايل وعينيها البراقتين تلتهم كل تفاصيل مظهرها. وفجأة زمت شفيتها وقالت:

«لا نريد امرأة غريبة هنا».

وترددت مهمة بين الفجر تعبر عن موافقتهم على قوطا، كفاهم تضليل البوليس وغيره من المسؤولين الصغار الذين يتدخلون في حياتهم. وقال روم بيرو:

«قلت إنني سأكون مسؤولاً عنها تماماً. ألم تعد كلمتي تكفيكم؟»

واستطرد يقول وقد رقت نبرته وهو ينظر إلى الرجال الغاضبين: «يبدو أن هذه القبيلة أصبحت تحت حكم النساء في غيابي، بحيث تأتي أوامري في المرتبة الثانية بعد أوامر الفتاة لالا!»

ولم يتحمل الرجال كلامه المهين فدفعوا لالا بعيداً حتى ترنحت بين جموع الواقفين الذين قالوا كرجل واحد:

«ما زلت زعيمنا يا روم بورو وتستطيع الفتاة أن تبقى بيننا».

وتفرقت النساء وبقي لرجال لمناقشة شؤونهم الخاصة. وقبل أن ينضم إليهم روم بورو أخذ مارييل جانباً وأمرها قائلاً:

«من الآن فصاعداً عليك أن تطيعي أية تعليقات أوجهها لك. وبمجرد شرح ظروفك لمجلس القبيلة سيوافق بلا شك على بقائك بشرط أن

أكون أنا المسؤول عن كل تصرفاتك، فإن سلامتك أنت وأفراد القبيلة سوف تتوقف على طاعتك العمياء. فهل تفهمين ما أقوله؟»

إلا أنها مالت برأسها وهي تقول معترضة على كلامه:

«لكنك تتناسى أنني لا أريد البقاء هنا. الفرار لم يكن فكرتي، لذلك فإن كل هذه العملية المثيرة لا داعي لها. فلولم تتدخل أنت وخالتي في شؤوني لأمكن حل المشكلة بشرح بسيط لظروفي. فأنا لم أخطيء، أن كل ما فعلته هو أنني خالفت القانون بعض الشيء. لكن حتى الروس لا يستطيعون تحويل خدعة بسيطة إلى جريمة شنعاء

وحاول روم جاهداً أن يحتفظ بهدوء نبراته إلا أن الغضب كان

بادياً بوضوح في كلماته وهو يقول من بين أسنانه المطبقة:

«لولا خالتك لسلمتكم إلى سبرجي إيفانوف شخصياً حتى أتشفئ فيك وأنت تدمين على كلماتك هذه».

وكانت كلماته تدل على صعوبة فكرة تقبل القبيلة لها، بحيث وهنت

ثقتها وتزعزعت، ويبدو أن شيئاً من ترددها ظهر عليها لأنه توقع منها رداً إيجابياً على سؤاله:

«هل أنت مستعدة للتعاون معنا؟»

فقال وهي تعترف بهزيمتها:

«لا بأس رسأفعل ما تطلبه مني ولو مؤقتاً».

واستراحت مارييل عندما لم يحاول أن يستغل انتصاره عليها.

لكن قلبها أخذ يدق بقلق عندما أشار لاحدى الفجريات التي تقدمت

منه بتشاقل. إلا أن مارييل لم تلمس فيها روح العداء التي أبدتها

الفتاة لالا عندما قدمها روم لبعضها قائلاً:

«مارييل، هذه هي كوري زوجة صديقي الحميم روبا وسوف

نسافر معهم كجزء من أسرته».

ثم تابع الحديث قائلاً:

«بما أن مارييل تتكلم البولندية بدرجة لا بأس بها، سيكون في استطاعتكما التفاهم معاً».

وجالت كوري بنظرتها البراقة فوق وجه مارييل، وعندما لم تجد تردداً أو تراخياً ظهرت على وجهها ابتسامة بطيئة، فاستراح روم وانصرف وهو راض لينضم إلى أعضاء مجلس القبيلة الذين كانوا في انتظاره.

وقالت كوري بخجل وهي تتوقع رفضاً محرجاً من مارييل:  
«هل أنت جائعة؟»

فتنهدت مارييل بارتياح لسؤالها وقالت:  
«أشعر بجوع شديد وكأني لم أكل من مدة طويلة، كما أن رائحة طعامكم رائحة».

وبدا المرح على وجه كوري وهي تقول:

«يجب ألا نأكل قبل الرجال، لكني سأحجز لك كمية من الطعام تشبع جوعك».

ثم ابتسمت وقالت تداعب مارييل:

«تعالى... سأعطيك شيئاً قليلاً من القدر، فإذا اشتدت حدة المناقشة سينسى الرجال حاجتهم إلى الطعام، لذا يجب ألا نتركك تعانين من الجوع أطول من ذلك».

وضحكنا كالأطفال وهما تلتقطان من القدر قطعاً صغيرة من اللحم لأشباع الجوع الذي كان يؤلم معدة مارييل. وفي نفس الوقت تجاهلت كوري نظرات الغضب المصوبة إليها من بقية النساء وهن

منهكيات في طهيهن. وجلست الصديقتان تتبادلان الحديث وتتعارفان. واستجابت كوري لرغبة مارييل في معرفة كل شيء عن حياة الغجر الذين يعيشون في حركة مستمرة كالغصون المتألمة والمياه المتدفقة، فسألت زميلتها قائلة:

«هل لديك أطفال يا كوري؟»

وعكست عينا كوري عاطفة الأمومة وهي تشير بيدها ناحية شيء يبدو كغطاء كبير موضوع على الأرض بين عربات الغجر وقالت بفخر:

«لدي طفلان، ابن اسمه بونزي وابنة اسمها موزول وهو في لفتكم اسم فاكهة».

وعندما نظرت إليها مارييل بدهشة ضحكت كوري وتابعت كلامها قائلة:

«أنا نسافر كقبيلة واحدة ولكل أسرة منا عربتها الخاصة، وتقوم كل زوجة بالطهو والغسيل والتنظيف لأسرتها. فبالرغم من سفرنا المشترك إلا أن كلا منا يحترم حرية الآخر ورغبته في العزلة، لكن إذا احتاجت أية أسرة إلى مساعدة ما تقدمها لها. أما الأطفال فلا يتبعون هذه القاعدة فهم ليسوا في حاجة إلى العزلة، فهم يختلطون طوال النهار وطوال الليل أيضاً».

ثم أشارت إلى الغطاء الكبير الذي لاحظت مارييل حركة تحته وكان بركاناً صغيراً يشور بداخله. وتابعت كوري كلامها قائلة:

«ينام كل الأطفال معاً كما ترين تحت غطاء واحد. ويبدو أن أحدهم قلق الليلة وسوف تحدث ضجة وضحك ومرح من الآخرين حتى يهدأ وينام أخيراً».

وسألته مارييل وهي تتعجب من طريقة حياتهم:

«ألا تتعيبين من نفس الصحبة طوال الوقت، وتتمنين رؤية وجه جديد والاستماع لآراء جديدة من أن لآخر؟»

«نحن نختلط مع الآخرين، ولسنا دائماً في قبيلة واحدة، ف قريباً قد يقرر زوجي أو غيره من الرجال ترك هذه القبيلة والانضمام إلى غيرها. فمثلاً قد نجد عند مفترق الطرق إعلاناً نعرف منه أن قبيلة شقيق أو قريب موجودة في المنطقة فنترك هذه القبيلة ونبحث عن الآخرين. وهكذا يستمر ارتباطنا بأسرنا ونعرف منها جميع الأخبار. من مات ومن ولد ومن سيتزوج.»

استولى الحديث على انتباه مارييل حتى أنها اعتبرت عودة الرجال شيئاً غير هام. وعندما ظهر روم بورو و روبا زوج كوري من ظلام الليل، ودخلا إلى حلقة النور طلبا الطعام بدا التبرم على وجهها وسأل روم مارييل قائلاً وهو يسرع في التهام الطعام الذي قدمته له كوري:

«ألا تريدان معرفة القرار الذي اتخذته المجلس بخصوصك؟»

فردت عليه مارييل بوقاحة قائلة:

«بما أن أراني لا قسمة لها، فلا فائدة من السؤال.»

فوافق على أقوالها بغضب وقال:

«معك حق، ومع ذلك أجد لزاماً عليّ أن أوضح لك بأن المجلس اتخذ قرارات في صالحك. فإكراماً لي، قرروا السماح ببقائك. وإكراماً لحالتك ستكونين ضيفة مكرمة طيلة بقاءك هنا، لكن بشرط ألا يخرج وجودك أحداً. فالعجز يعتبرون تصرفات الأغراب غريبة فيجب أن تعذرهم إذا أبدوا مخاوفهم من قدرتك على معايشة نساتهم بنجاح.»

وكانت مارييل على وشك الاحتجاج على وضعها تحت الاختبار عندما انسل شخص إلى الجزء المضيء في وسط المعسكر ليفضي برسالة هامة في أذن روم. وفجأة رآته يشور مثل الحيوان المطارد ويصمت ثم ينتفض واقفاً ويختطفها بين ذراعيه ويرفعها عن الأرض قائلاً لها وهي تحاول الإفلات من قبضته.

«لا تتحركي ولا تنطقي بكلمة واحدة.»

وبينما هو يحملها إلى المنطقة المظلمة من المعسكر سمعت أصواتاً أتية من حدود المعسكر تجادل بجلبة واضحة. إلا أن هذه الأصوات لمحدث فجأة عندما أنزلها روم إلى الأرض ودفع بها تحت الغطاء الضخم الذي يرقد تحته الأطفال النائمون. وأخيراً اتضحت لها خطورة الموقف حين سمعت صوت سيرجي إيفانوف يدوي في أرجاء المعسكر.

«تعلمون جميعاً عقاب الذي يؤوي مجرماً. فإذا وجد جنودي تلك الفتاة الانكليزية في معسكركم فلا داعي لأن أخبركم بما سوف يحدث لكم. فالفتاة جاسوسة ويجب القبض عليها.»

وأصدر أوامره المشددة إلى رجاله بتفتيش عربات العجر. فارتجفت مارييل تحت الغطاء عندما سمعت تكسير الأخشاب وتحطيم الأواني مما يدل على عنف الجنود أثناء قيامهم بعملية التفتيش. ولفت نظر أحد الجنود الروس أنين أحد الأطفال في نومه فسأل بحدّة:

«ما هذا؟»

فردت عليه كوري قائلة:

«إنه طفل قلق يئن في نومه فأرجو ألا تزعجه.»

وسمعت مارييل صوت الأعشاب تتحطم تحت حذائه الكبير

### ٣- عداء الحب

كانت عربة العجر متينة البناء تقف على عجلات عالية، وفي كل جانب منها ثلاث نوافذ تغطيها ستائر باهتة كانت في يوم من الأيام زاهية اللون. وفي مقدمة العربة باب مزدوج أمامه عتبة عريضة مثل الشرفة. أما جدران العربة فمن الخشب الزان الطبيعي المصقول. وسقفها أبيض اللون. وظهر لحاف زاهي اللون فوق أريكة منجدة تستخدم كسرير، وفي العربة كرسيان بدون ظهر وعدد من المساند المحشوة بالريش. هذا هو كل الأثاث الموجود في العربة التي تستخدمها مارييل كمنزل لها.

استلقت مارييل على السرير، وأطبقت يديها على اللحاف بدون وعي وهي لا تزال تحت تأثير اللحظات المخيفة التي مرت بها. ورأت على الحائط العاري ظل روم، وقد طال بسبب ضوء المصباح المدلى من سقف العربة. وشعرت، بوجوده في كل شبر من العربة يهيمن عليها من مكانه ويوجه إليها سؤاله:

«أما زلت تعتقدين أن جهدنا لا يبعدك عن طريق سيرجي إيفانوف عملية مسرحية لا ضرورة لها؟»

فنظرت إليه وهي تمقت تعاليه عليها ووقاحتته في عدم الاهتمام بمشاعرها. فجاءت كلماتها مريرة عندما ردت عليه معترفة بالواقع وقالت:

«لقد أخطأت، وأعرف الآن أن أمني الوحيد في الحرية هو في يديك. وأيدي عشيرتك، لذا سأبذل كل ما في وسعي حتى أكون محبوباً»

وهو يقترب من الأطفال النائمين. وتصببت عرقاً من الخوف وهي تنتظر محبوسة الأنفاس بينما وقف الروسي قريباً من رأسها يفكر هل يرفع الغطاء عن الأطفال أم لا. وكاد يغمى عليها من رد الفعل عندما قرر ألا يرفعه وابتعد عنه. وبعد نصف ساعة تم خلالها تفتيش جميع العربات ونزع كل شيء عنها، أمر سيرجي إيفانوف رجاله أن يتوقفوا عن التفتيش ويتركوا المعسكر.

لديهم.

«كم أنت عاقلة!»

قالا روم وقد شعر بخيبة أمل من عدم ردها بعصبية كعادتها معه حتى الآن.

ومما زاد في شكه من موقفها الجديد هو اعتياده على مقابلة الناس له بحرارة سواء كانوا من افراد جمهوره أو أفراد قبيلته، لذا وجد في موقفها الجديد شيئاً غريباً. وقالت مارييل في نفسها: إذا كان هذا هو شعوره فإنه سيصاب بمزيد من خيبة الأمل لأنها تعتزم في المستقبل أن توقف روم الجبار عند حده.

كانت سلامتها تتوقف على هذا الرجل الذي ينتعش من تبرمها الغريزي، ولكن بما أنها تفضل عدم المجازفة في البقاء مع القبيلة، قررت أن تكون على وئام مع ذلك الفجري المتعجرف.

لذلك راقبته وهو يصب الشراب الأحمر كالياقوت في الكؤوس الرشيقة وتغلبت على اشمزازها، وقررت أن هذه الفرصة مواتية خطتها الجديدة، لذا قبلت منه الشراب بنظرة كلها دلال صوبتها نحوه من بين أهدابها الثقيلة، ورشفت قليلاً ثم همست:

«أشكرك، إنه لذيذ. هل هو من انتاج مزارع كرومك في اسبانيا؟»  
وعندما رفع حاجبيه من الدهشة لسؤالها هذا، شعرت أنها ارتكبت خطأ جسيماً لكنه قال:

«ولماذا مزارعي أنا ياسبانيا على وجه التحديد؟»

وأثار تسؤلها احرار وجنتيها وأجابته بتردد:

«لا أدري، فإنتي أقرن الفجر داتها بالأندلس وموسيقى الفلامنكو والرقص والشمس.»

«إنك تفكرين في غجر أسبانيا الذين يعتبرون نصف رجل، وغالباً ما يكونون مستقرين في مكان واحد مثل الغجر الموجودين لديكم في انكلترا أو في ألمانيا أو رومانيا. أما هم فرجل أصليون يقتصر ترحالهم على حدود بلد واحد أو حتى دولة واحدة، إذ توجد قبائل في روسيا و أمريكا كما تجدنيهم في أي مكان في العالم، من أوصلو حتى اسطنبول ومن الملايو حتى أفريقيا الجنوبية و البرازيل. فهل هذه الحقائق تدعشك؟»

فقطبت جبينها وقالت معلقة على كلامه، وقد بدأ التساؤل في عينيها الرماديتين الواسعتين:

«تقول هم كما لو لم تكن واحداً منهم.»

وقلقت روم الدهشة لتعليقها. وبعد تردد بسيط سحب كرسياً وجلس عليه في مقابلتها وقد وقع ضوء المصباح على شعره الأسود القاحم وجعل فمه الصارم يبدو أكثر ساحة. وعندما بدأ في الكلام جاء حديثه بطيئاً في بادئ الأمر، ثم زادت سرعته وكأنه يجد الراحة في التخفيف من العبء الذي يحمله في قلبه من ذكريات دفنها منذ زمن طويل، فقال وقد أذهلها كشفه لها عن اسراره:

«بدأت حياتي مع الفجر في ليلة مقمرة من ليالي شهر مايو سنة ١٩٤٠ وكنت في الثالثة من عمري. لكنني أذكر بوضوح أنني استيقظت في سريري تلك الليلة على صوت قادم من السماء، وتلاه صوت ظننته لأول وهلة رعداً. ومع ذلك لم أشعر بالخوف، فقد كان والدي نانين في الغرفة المجاورة. لذا بقيت في سريري أنصت باهتمام للصوت، حتى أخذ في الارتفاع. فجريت إلى الناقذة وقد تملكني الخوف المزوج بالدهشة والانبهار فرأيت مجموعات من الطائرات الحربية تحمل علامة

النازي أي الصليب المعقوف وهي تحوم حول أسقف المنازل. ومن آن  
لآخر كانت إحداها تخفض جناحها وتسقط من السماء كالنسر الجريح  
ثم تنفجر حين ترتطم بالأرض محدثة خراباً كبيراً. ومن شدة خوفي أردت  
أن اجري إلى غرفة والدي ولكنني وجدت نفسي متسماً في مكاني.  
وفجأة شعرت كأن المنزل بأكمله قد انفجر وانهار ببطء حولي في كوم  
من التراب والحجارة والأخشاب المحطمة.»

وحسب مارييل شهقة تنم عن ألمها. وبالرغم من ساعها القصة  
كما رواها لها صاحبها بلا مبالغة، إلا أنها رسمت في مخيلتها صورة  
واضحة لما حدث، وهست قائلة:

«والداك؟»

فرد عليها قائلاً:

«لقد قتلا... والشئ الوحيد الذي أذكره بعد ذلك هو تخبطي بين جموع  
الناس وهم يسرعون في سيرهم هارين من الدمار. وكان الطريق  
مزدحماً بعربات النقل والأوتوبيسات وأعداد هائلة من  
الدراجات بعضها عليه ركاب، وبعضها محمل بالبطاطين والمراتب  
والحقائب المحطمة وكلها تسير على الأرصفة هرباً من الطريق المزدحم  
بالمرور. ولم يلاحظ وجودي أحد، وبعد عجزتي عن السير من شدة  
التعب، تسللت إلى أحد الحقول ووقدت لأنام قليلاً.»

وبدت في عينيه ومضة تعبر عن ذكرى أسعدته وبددت النظرة  
التائهة من عينيه، لكنه استمر في حديثه فقال متابعاً قصته:

«صحوت لأتناول إفطاراً من الحساء الساخن المقدم إلي من وعاء كبير  
كان يغلي على نار موقدة بالقرب من قدمي. وشجعنتني الوجوه السمراء  
الباسمة على شرب الحساء ونسيان شعوري بالضيق وبالفرع، انهم

لغجر الذين تقبلوني بحنانهم العظيم كواحد منهم.»

ظلت مارييل صامته عندما انتهت كلماته وأخذت تفكر في  
هول ما سمعته، وشعرت بضآلتها باعتبارها الشخص الذي يفضي إليه  
ذلك الرجل المتعجرف بسر حياته. ثم أوحى لها عقلها ألا تفرح بهذه  
الثقة فهي بالنسبة له لا وجود لها، بل هي مبعث مضايقة له كما لو  
كانت ذبابة على ذراعها. أما غير ذلك فهي لا شيء. وكان في إمكانه  
توجيه كلامه إلى أشباح بدلاً منها، إلا أنه بوعى أو بغير وعي قد  
كشف عن وحدته. لقد كان قائد الغجر وليس رئيسهم، لأن ذلك الجنس  
الحر يخضع لسلطة شخص واحد، ولكنهم يشعرون فيما بينهم وفي قرارة  
أنفسهم بأن دماءه ليست من دماتهم، وهذه الحقيقة لم يبوحوا بها أبداً  
بل يفضلون تجاهلها. فبالرغم من الاحتفال به واحترامه لم يكن من  
بين أصدقائه الكثيرين والمعجبين به من يعتبره من أهله.

ثم وقف وتطى بتكاسل كما لو كان ينفي نظريتها بأنه وحيد. ثم  
مشى إلى الباب وكأنه ضيغ وقتاً كثيراً في حديث عابر:  
«أرجو أن يكون سر يرك مريحاً، وإذا احتجت إلى أي شيء سأكون قريباً  
منك.»

ودفعها الفضول إلى الاقتراب من النافذة بعد أن تركها وخرج.  
فكان المعسكر ساكناً والاجسام الهادئة ممددة تحت الأغشية الثقيلة  
داخل الحلقة المحيطة بالنار الحامدة. وسمعت نعيق بومة ارتجف لها  
جسمها متوقعة منها شراً. لكنها اطمأنت عندما رأت روم الطويل  
ممدداً على الأرض عند نهاية السلم المؤدي إلى عربتها. وعندما أخذت  
تخلع ملابسها دارت أسئلة حائرة عديدة في ذهنها تبحث عن ردود لها،  
وتأكدت وهي تدخل تحت لحافها الدافئ أنها لن تستطيع النوم. إلا أن

جنفها أطبقا قبل ان تفكر في أحداث ذلك اليوم المثير..

واستيقظت على صوت ضحك وصراخ جموع الأطفال وهم يجرون بين العربات، وتحت أرجل الخيل، وعلى حدود المعسكر، يرحون ويرتعون في استمتاع ظاهر وصحة جيدة. ولم تجد أثراً لروم أو غيره من الرجال عندما خرجت من عربتها لتبحث عن ماء تفتسل به وما زال النوم يداعب عينيها. إلا أنها رأت كوري التي كانت في طريقها لمغادرة المعسكر وقد علقت دلوين في ذراعيها. وعندما نادى عليها مارييل، انتظرت مبتسمة حتى لحقت بها وقالت لها:

«إنني ذاهبة لاحضار ماء لغسل الملابس، ويحسن بك أن تأتي معي لأن هناك عادات يجب ان أشرحها لك لاتباعها إذا كنت ستبقىين مع قبيلتنا.»

فردت عليها مارييل قائلة:

«أولا انا بحاجة إلى الاغتسال، وبعد ذلك سأستمع بسرور لتعليقاتك.»

إلا أن كوري هزت رأسها وقالت:

«بل استمعي اليها قبل الاغتسال، وإلا خالفت تعليقات القبيلة ووقعت تحت طائل عقاب مجلسها.»

ووصلتا إلى النهر قبل ان تسأل مارييل المزيد من الأسئلة. وبلغت دهشتها منهاها عندما بدأت كوري في تقسيم النهر إلى اقسام مختلفة بخطوط وهمية. وبكل جدية شرحت لها كوري عاداتهم قائلة:

«تؤخذ مياه الشرب والطهي من أقصى شمال النهر، وتليها مياه غسل الأواني والاستحمام، وبعدها جنوباً تأتي المياه اللازمة لشرب الخيول وغسيل الملابس. ويجب استعمال دلو مختلف لكل غرض من هذه

الأغراض، وإلا أصبحت المياه نجسة، ويحرم على الفجر لمس أي شيء نجس.»

وفي الحال غيرت مارييل فكرتها عن الفجر وشعرت بأنهم يتمسكون بشدة بالعادات والتقاليد، وأحست بالحنوع وهي تشرع في تنفيذ تعليقات كوري.

وأعجبها المشي حافية القدمين في المياه الضحلة لملء الدلو الذي أعطتها إياه كوري. وكان للمياه بريق كالشمس، وانسابت برودتها حول أصابع قدميها وهي تحاول أن تحافظ على توازنها فوق الحجارة المغطاة بالطحالب الخضراء في محاولة لملء دلوها من مكان بعيد.. وضحكت كوري من حركاتها وقالت لها:

«خذني حذرك يا مارييل.»

ولم تتم كلماتها حتى انزلقت قدما مارييل ووقعت في البركة العميقة ووصل الماء حتى رقبته، وسمعت صوت ضحكات تأتي من ناحية الشاطئ، بينما أخذت كوري تعاونها على الخروج وقد التصق شعرها الأشقر برأسها وجعلها تبدو كالصبي الخائف.

وشعرت كأن حلتها الميتلة تزن طنناً وهي تلتف حول جسدها المرتعد من البرد. وحاولت كوري أن تغالب الضحك، اما لالا الواقفة ترقب الموقف، فكانت ضحكاتهما تحمل معنى التشفى السافر وهي تقف على الشاطئ. دون أن تحاول تقديم أية مساعدة لمارييل، وأخذت ترقب كوري أثناء محاولتها جذب مارييل من المياه. وقالت لالا وهي تضحك متشفية وتمر بيديها على جسدها الذي يتفجر أنوثة:

«إن فتاة روم الأجنبية تبدو كالصبيان أكثر من ذي قبل. كم أود لو

كان روم هنا ليرى بنفسه ما أظهرته المياه. إن ملابس الرجال تخفي تحتها جسم صبي لم يكتمل نموه بعد».

وكادت المياه أن تتحول إلى بخار من شدة غضب مارييل لهذا الهجوم الوقح. فطبقاً للمقاييس الغربية يعتبر قوامها مثالياً، أما بالنسبة لقوام لالا المكتنز، فتعتبر نحيلة، وألمها هذا، لذلك جاء ردها عنيفاً في شكل مثل تعلمته من والدتها:

«إن الجهال لا يمكن أن يؤكل بلعقة.»

ولشدة دهشتها اصطبغ وجه لالا بالاحمرار واستدارت بنظرة حائقة وانصرفت، وسمعت كوري بجوارها وهي تشهق من الدهشة، ثم تنفجر في نوبة من الضحك وتقول:

«كيف عرفت ذلك؟ إن عيب لالا الأكبر هو جهلها بطهو أبسط الوجبات، وقد أصابتها كلماتك في صميم كبريائها فلا غرابة ألا يتقدم لها أحد من رجال القبيلة ليتزوجها. لقد كسبت حقاً هذه الجولة لكنني أخشى أن تزيد كلماتك من طبع لالا الحقود وهو الانتقام لأقل إساءة توجه إليها.»

ثم نصحتها قائلة:

«أخذيها يا عزيزتي. فقد جعلت منها عدواً.»

ولما كانت خطط صوفي لم تشمل نقل أمتعة ابنة أختها معها، لذا اضطرت مارييل إلى قبول الملابس الجافة التي عرضتها عليها كوري لأن كل ما تملكه من ملابس كان مبتلاً على جسمها البارد. فدخلت عربة كوري وخلعت ملابسها ودلكت جسمها بمنشفة خشنة حتى عادت الدماء تجري في عروقها، ثم لبست التنورة المتعددة الطبقات والبلوزة ذات الفتحة الواسعة التي أخرجتها لها كوري من

صندوق ملابسها. وشعرت مارييل بملابسها الجديدة كأنها بطلة رواية موسيقية كوميدية، خاصة عندما ربطت مشبك الحزام العريض الذي جعل خصرها قطر دائرة اليد. واستدارت إليها كوري وهي ما تزال تنبش في أعماق صندوقها وقالت لها:

«هذه الملابس ثلاثمك تماماً. ولن يجد روم صعوبة في تفريقك عن صبي، كما لا بد أن لالا ستعترف بهذا الآن.»

وضحكت كوري عندما احمرت وجنتا مارييل من الخجل ثم عبرت عن رضاها عندما وقعت يداها على الشيء الذي كانت تبحث عنه في الصندوق، فقالت لمارييل وقد أخرجت يدها من صندوقها بقبضة من المصاغ المصنوع من العملات الذهبية وقالت لها:

«بهذه ستتم زينتك.»

فاحتجت مارييل قائلة:

«لا أستطيع أن أخذها، تبدو ثمينة وأخشى أن أفقدها.»

فتعجبت كوري وقالت بتردد، وقد أحننها رفض مارييل:

«إنني أقدمها لك هدية لا ترد، فمن عاداتنا تقديم أحسن ما لدينا لمن نعجب بهم.»

وقفز قلب مارييل لضخامة خطئها، بدا على كوري الاستياء مما اعتقدت أنه رفض لصدقتها. ورأت مارييل أن تهديء من مشاعر كوري الجريحة بأن تقبل الهدية المقدمة لها، بنفس الروح التي قدمتها بها صديقتها. ولما شعرت بالألم الذي سببته لكوري، خرت على ركبتيها بجانب الفتاة واعتذرت لها قائلة:

«أسفة يا كوري... أرجو أن تسامحيني، فلم أكن أفهم تقاليدكم.»

وفي الحال غيرت الابتسامة من مظهر كوري وقالت وهي تدفع

بالمصاغ إلى أيدي مارييل:

«إذا هل تلبسينها؟»

«أشكرك... سألبسها بكل سرور بشرط أن تضمني لي أن روبا لن

يفضب لأنك أعطيتني إياها.»

لكن كوري طمأنتها قائلة:

«بل سيكون فخوراً بذلك، فنحن نتقاسم الثروات التي تأتي لنا

بفضل كرم قائدنا روم. من سنوات قليلة كانت قبيلتنا من أفقر قبائل

العجم، عانينا من الفقر والمتاعب الكثيرة، ولم يكن لنا بارقة أمل في

طريقة لتغيير بها حظنا العثر، لكن روم صمم على أن يبحث لنا عن

مصدر للمال، ليس لنفسه بل لنا نحن عشيرته.»

ثم أتمت كلامها قائلة بفخر واعتزاز:

«والآن لدينا بطون مليئة، وأطفال أصحاء، وعربات وماشية ممتازة. إن

روم رجل غني جداً، أو مليونير.»

فاستغربت مارييل لهذا النبأ. وبالرغم من أن كوري لم تذكر

نوعية ثروة روم، إلا أن إشارتها إلى الثراء الكبير أدهش مارييل

كثيراً فسألت صديقتها قائلة:

«إذا كان روم قد انفق كل نقوده عليكم فكيف يكون غنياً؟»

فبدت على كوري الدهشة وهي ترد قائلة:

«إن المليونير وحده هو الذي يستطيع أن ينفق مليوناً.»

قالت ذلك بمنطق بسيط حتى أن مارييل لم تحصر جواباً، ثم

استطردت تقول وهي تثبت الأساور والعقود حول معصم مارييل

ورقبها:

«روبا يحصل على قسط أكبر من ثروة روم لأنه يصحبه إلى كل

مكان يذهب إليه، ويتقاسم معه متاعب العالم الغربي. فبعد أن يفي

بجميع احتياجاتنا، يحول المبالغ المتبقية إلى قطع ذهبية للضمان ضد

الحاجة والعوز.»

لم تندش مارييل من حب عشيرة روم له واعترافهم له

بالمجمل. فإن اليتيم الخائف الذي التقطه العجم من بين جموع اللاجئين

المصريين، قد جزأهم على صنيعهم الانساني نحوه خير جزاء.

وبمرور ساعات النهار اعتادت مارييل ملابسها المستعارة من

صديقتها، ونسيت تدريجياً أنها لم تكن في بادئ الأمر مريحة. وقضت

معظم وقتها في مساعدة كوري في أعمالها، كما حاولت أن توطد

علاقتها ببقية النساء. ففي بادئ الأمر كن حذرات في تعاملهن معها

والاستجابة لمحاولتها التقرب منهن، إلا أن رغبتها الأكيدة في إقامة

صداقات معهن، بالإضافة إلى محاولاتها المتعثرة المضحكة في التخاطب

معهن بلفتن سرعان ما أذابت التحفظ الموجود بينهن.

وعندما عاد الرجال إلى المعسكر في آخر النهار بعد يوم قضوه في

المقايضة في سوق للخيل، لم يكن مستغرباً ألا يلتفت أحد للمارييل

في بادئ الأمر وهي بين جموع النساء المتهمكات في الطهو والمرهقات

بسبب مشاغبة الاطفال المحيطين بهن. فعندما تقدم روم إلى الجزء

المضيء من المعسكر، لم يلاحظ مارييل بالرغم من كونها قريبة جداً

منه. اقترب من النار ووقف يرقبها وهي تحرك محتويات آنية حديدية

بمفرقة كبيرة، وبدون أن تلاحظ وجوده مرت بأصبعها على حافة المفرقة

لتلحق شيئاً من الصلصة العالقة بها. وكانت النيران المهترئة تضئف

مزيداً من الرقة إلى ملامحها الدقيقة. وتضفي على شعرها بريقاً مثل

الفضة. أما الظلال فقد ضمت قوامها وأخفت تفاصيله بدلال يثير

الرجال. وكانت تضع الملح على الطعام عندما قال لها مازحاً:  
«إذا كنت تتنكرين في زي شخصية مجهولة، فهل أظن من هي؟»  
ووقعت المفرفة من يدها في الاناء، كما شلت المفاجأة حركتها، وأثار  
وجوده الضاحك خجلاً بدد رقتها وسلب كل الرشاقة من حركاتها.  
وأخيراً زاد من حرجها وخجلها بعبارة القاسية وهو يقول:  
«لقد حرمت المرأة الغربية نفسها من أنوثتها بسبب كفاها في سبيل  
التحرر، لذا يجب التمسك بارتداء البنطلون.»  
واندلعت شرارة وانعكس ضوءها في أعماق العينين الرماديتين  
الباردتين فقالت:

«هل تتكلم عن ثقة، أم هذا مجرد استنتاج؟»  
فضحك واقترب منها وقال:

«لديّ عينان ولذيّ بعض التجارب، فإن مغازلة المرأة الغجرية مثير  
مثل اصطيد النمر. أما أنت فصيدك هين مثل صيد الغزال  
الصغير.»

فقالت بحدة واعتداد:

«إنني أعرف كل شيء عن العلاقة بين الجنسين.»

«ربما... لكن ما زلت في حاجة إلى تعلم كل شيء عن الحب. فالعلاقة بين  
الجنسين كلمة عملية باردة لا محل لها عندما تستخدم لوصف عملية  
صهر قلبين وجسدين وفكرين معاً. لذا يجب التخلي عن كل فكرة  
للتحرر إذا أردت الاندماج في الوحدة الكاملة التي تعتبرها نسلونا حقاً  
لهن. فإن الرنق الخارجي الذي يرضي الرجل لا يهمننا نحن رجال الفجر.  
فلا حاجة بنا لشعرة بدون لب.»

وفي ساعة متأخرة من تلك الليلة، وثّحت جنح الليل والمطر، تحركت

قافلات عربات الفجر من مكاتها، وسارت في سكون وقد غطيت  
حواضر الخيل بالقش، وربطت بقطع من القماش الملون، وسارت وهي  
تتجنب الطرق العامة مخترقة البلاد عبر الطرق الوعرة التي لا تستطيع  
السير عليها غير العربات ذات العجل الكبير. وشعرت مارييل بوخز  
الضمير لأنها كانت مستريحة في عربتها الوثيرة وهي تتمتع بالدفع،  
بيتاً جلس روم في الجزء الخارجي منها تحت المطر المنهمر وهو يبحث  
الخجول على التقدم للأمام، وأحياناً كانت القافلة تبطئ في سيرها  
فيضطر روم للقفز من مكانه إلى الأرض وقد غطى الطين قدميه  
حتى كاحليه ليدفع العجلات المتعثرة بكتفه. وأحياناً تندفع العربة إلى  
الأمام وتطيح بمارييل لتترنح بين الأواني والحلل التي تحدث بها  
كدمات لم تشعر بها في بادئ الأمر. وكان شباب القبيلة منهمكين في  
مساعدة المتعثرين في الوحل المكثيف.

وبعد ساعات من السفر الشاق سمعت مارييل صوتاً متكرراً  
لصفارة منبعثة من العربة الأولى للقافلة. وكان صوت الصفارة  
مطمئناً وهي تسمعه مختلطاً بصوت وقع حوافر الخيول على الوحل،  
وصوت بكاء الأطفال، أحياناً، من العربات القريبة. وبعد ذلك مباشرة  
أدهش مارييل صوت وهي تسرع في سيرها على أرض صلبة مرة  
أخرى. وكانت حوافر الخيول قد فقدت القش المربوط بها من مدة  
طويلة.

وفتح باب العربة ودخل روم كما دخلت معه لفحة من الهواء  
البارد. وظهرت ابتسامته العريضة وهو سعيد لانتصاره على الطبيعة  
القاسية. ولمعت عيناه من بين خصلات شعره الأسود المدلى على جبينه،  
وقال بارتياح ظاهر:

«عبرنا الحدود ودخلنا تشيكوسلوفاكيا. فمع أننا مازلنا في أرض روسية، إلا أن أميلاً كثيرة تفصلنا عن سيرجي إيفانوف. وغداً، إذا لازمنا الحظ سنبعد عنه أكثر.»

وزادت ابتسامته إشراقاً وهو يقول:

«بعد قليل يا عزيزتي سنفترق إلى الأبد.»

يا عزيزتي... لقد سبق لمارييل أن سمعت هذه العبارة الحانية باللغة البولندية من والدتها. لذا لم يكن مستغرباً أن تلقى تلك العبارة صدى في قلبها. وبدت لها العربة صغيرة عندما أخذ روم يتقدم منها. لكنها أخذت تتراجع وتبتعد عنه، وقد طغى ظله الكبير على الحائط على ظلها الدقيق. إلا أنها شعرت بالمرح لجلجلها منه، فالتفتت إليه بتحد. ومع ذلك لم تستطع إخفاء الرجفة التي ظهرت في صوتها: «أنا أيضاً تواقفة للعودة إلى وطني، فسعادتك لا تفوق سعادتني بذلك.»

ومما زاد من وطأة السكون الذي ساد بينهما، صوت دقات ساعة كبيرة معلقة في العربة. ولبرهة قصيرة تلاتت نظرته الواعية السوداء بنظرتها الغامضة الرمادية. وسألها روم فجأة وكأنه يدرك لأول مرة أنها ذات شخصية مستقلة.

«هل لديك أقارب في انكلترا؟»

وشعرت بغصة في حلقها وحاولت أن تفهم سر اهتمامها بها فردت:

«القرية الوحيدة هي صوفي، لكن لي أصدقاء.»

«أصدقاء...؟ هل ترين أن الصداقة رابطة كافية لاشباع احتياجاتك الشخصية؟ أو ربما لك بين هؤلاء الأصدقاء شخص خاص تودين أن توطدين علاقتك به.»

ولفت نظره اصطباغ وجنتيها بحمرة الخجل. ومما زاد من حرجها

التغيير الذي ظهر على وجهه والذي دل على انه استنتج شيئاً معيناً من جلجلها. وتضايقت وردت عليه قائلة:

«كلا، لا يوجد شخص معين، لكني أرجو الحصول على وظيفة جيدة، وهي طبعاً أمنية تعتبرها لا ثقة بإحدى بنات جنسي.»

واستاءت مارييل عندما لم يظهر أي تعبير على وجهه لعبارتها.

«لا يهمني ما تفعلينه بحياتك. فبمجرد وصولنا إلى النمسا سيكون من السهل تدبير أمر انتقالك إلى انكلترا، وبعد ذلك أشك إذا كنا سنلتقي ثانية.»

ثم مشى نحو الباب وقال:

«حاولي أن تنامي قليلاً فسنسافر طيلة الليل. الطرقات ممهدة وستسرع العربة في سيرها.»

وكما تكلم بسرعة خرج بسرعة بدون أن يتيح لها فرصة الرد عليه بطريقة تحفظ بها ماء وجهها.

ونامت حتى تخلل الحرجدران العربة، ثم دفعها الفضول وحاجتها إلى الهواء النقي للخروج والانضمام إلى روم الذي ترك التعب أثره على عينيه. وعندما رآها مر بيده على وجهه، حيث لم يتسع الوقت لخلاصة ذقنه، وعبرت نظرته عن اعتذاره لمظهره، بينما صعدت مارييل على المقعد الخشبي للعربة وجلست بجواره. وكانت القافلة تسير ببطء صاعدة التل، وكان المطر قد غسل الأرض ونظفها، ولمعت أشعة الشمس على كل ورقة في الأشجار، وكانت جداول المياه تنساب إلى أسفل التل بحيوية براققة، ولم تعرف مارييل سبباً لشعورها بالحيوية والسعادة وهي تجلس على المقعد المرتفع وتترنح من حركة العربة وتشم عبر الهواء المشبع بشذى الزهور، وتستمتع بصحبة روم،

بصورة لم يسبق أن شعرت بها من قبل.

أما روم نفسه فبدت عليه السعادة وهو يدخن غليونيه، ويدعها تشاركه صحبته بدون أن يوجه إليها نقداً أو تهكماً كعادته. وفجأة مدت مارييل ذراعها وكأنها تحتضن الطبيعة الجميلة بأكملها وقالت:

«يا لها من طريقة حياة ممتعة. كيف تطيق أن تترك كل هذا الجمال لتدخل النوادي الليلية المغلقة وتعيش في المدن المكتظة بالناس؟»  
فعض على مبسم غليونيه بأسنانه وقال:

«تعلمت من الفجر أن أعيش في الحاضر وليس في المستقبل. فكل الذكريات والأمني والرغبات والدوافع الخاصة بالغد، كلها متأصلة في الحاضر. فبدون الآن لا يوجد ما قبل، كما لا يوجد ما بعد.»  
وتأملت مارييل في معنى كلماته وفلسفتها، واستعادتها لنفسها وحمدت الله على إتاحة الفرصة لها لكي تشاركه لحظة الحاضر التي كانت تعيش فيها، حتى ولو لم يكن لها مستقبل.

وفجأة سمعت صوت صفارة مرحة، انتصبت لها أذان الخيول وفردت ظهور السائقين المقوسة من التعب، وكأن موجة منشطة سرت في القافلة بأسرها، وقف سائق العربة الأولى أمام مقعده وأصدر صيحة الفرح وهو يدفع بجواده فوق قمة التل. وحذا حذوه بقية الرجال. وترددت في الجو أناشيد الطيور المختلطة بأصوات العجلات وحوافر الخيول. ورغم خوفها شعرت مارييل بالسعادة وتشبثت بالعربة وهي تتقدم بسرعة وتميل بشدة وكأنها ستقلب. وكانت الأبخرة تتصاعد من أجساد الخيول المتصبية بالعرق. إلا أن صوت صليل السلاسل والأواني كان يزيد من الشعور بالسرعة. هكذا تقدمت القافلة فوق

قمة التل ثم هبطت والجهت نحو دائرة من عربات الفجر المسكرة من قبل في ذلك المكان. وجرت النساء والأطفال إلى الأمام، وهم يتعرفون على الشخصيات المألوفة لديهم، ويتبادلون معهم التحيات قبل أن تستقر القافلة الجديدة في مكانها. وبينما كانت المجموعتان تندمجان، تبينت مارييل تشابهاً واضحاً بين أفراد الأسر، فحيا القريب قريبه، والأخ أخاه بروح مرحة سعيدة. وبسرعة وضعت أنية الطهو على النار التي أعيد إضرامها بينما تولى الشباب أمر الخيول. وتبادل الرجال الأخبار وأخذت النساء بإعداد طعام الافطار للضيوف.

وتسللت مارييل داخل العربة ولم يلتفت إليها أحد، إذ لم يكن لها مكان أو مجال في هذا التلاقي بين القبيلتين شعرت بالتحجل من مقابلة الأعراب ولم ترغب أن تفرض نفسها عليهم. فجلست وحيدة أمام النافذة وأخذت تسلي نفسها بالتخمين عن القرابة الموجودة بين الأفراد.

وسرعان ما فترت تسليتها وانتابتها كأبة طاغية، تذكرت خالتها وكيف افترقت عنها فجأة وفي ظروف غير ودية. فشعرت لأول مرة بمرارة الوحدة التي تنتاب اليتامى الذين لا قريب لهم. فتمدت على سريرها وأغمضت عينيها، كما تعمدت شغل تفكيرها بعيداً عن الأفكار التي تدور حول الأسرة والأصدقاء. إلا أن الحزن تمكن منها، ولم تستطع مسح آثار دموعها من فوق خديها في الوقت المناسب عندما سمعت صوتاً داخل العربة. نظر إليها روم وهي تتظاهر بالتشاوب ثم تتمطى وكأنها استيقظت لتوها من النوم. ورغم أن فمه لم ينم عن أية مشاعر إلا أنه عندما وضع يده على كتفها وأشار إليها أن تتبعه. تبعته بدون أي تعليق أو سؤال.

في تلك الليلة أقامت القبيلة المقيمة حفل سمر للقبيلة الزائرة فجلس الرجال حول النار على الطريقة الفجرية يتسامرون بحرية وانطلاق واستمتاع ودارت النساء حولهم يقدمن من الطعام لاشباع الشهية التي شحذها الاستمتاع بجمال الصحبة، وحلاوة الحديث. وبعد أن أوى الأطفال إلى فراشهم انضمت النساء لمجلس الرجال حول النار لسماع الأغاني التي تحكي تاريخ الفجر بنشدها تروكا وهو رجل مسن، محترم من رجال القبيلة كلها. وكما لو كان ذلك حقها، وجدت مارييل أنهم أجلسوها بجوار روم الذي يترجم لها الكلمات المنشدة. وقد قرب فمه منها وأخذ يمسس بالكلمات في أذنها. وأعجبت مارييل بشاعرية كلمات الأغاني، وكلما سمعت المزيد منها زادت نشوتها بما تحمله من مشاعر عاطفية جياشة. وعندما انتهى الغناء كان المجهود قد أضنى الرجل المسن فجلس متكئاً على سواعد أولاده وقد خارت قواه، وساد صمت رهيب بين الجالسين كما لو كان الوقت توقف عن سيره تحت تأثير سحر الأغاني وجمالها.

ثم بدأ روم يدندن بنغم راقص من أنغام الفجر، الأمر الذي بدد التوتر والوجوم واستولى إيقاع النغم على الشباب فاشتركوا تلقائياً في ترديده. أما الفتيات فقد أخذن يصفقن على الإيقاع ووثبت إحداهن من وسط الدائرة متأثرة بالنغم وأخذت ترقص وتدور في مرح ونشوة، واتسعت عينا مارييل عندما أدركت أنها لالا وتضاربت في نفسها مشاعر الكراهية والاعجاب معاً عندما بدأت الفتاة تلف وتدور أمام المتفرجين. وكان تعبير وجهها ينم عن الكبرياء وقد بدأ التهكم في عينيها وهي تدق الأرض بقدميها الصغيرتين العصبيتين. وشجعها تصفيق الأيدي على الإسراع في حركة قدميها وهي تلف حول الدائرة

وقد انفردت طيات ملابسها بينما كانت نظراتها تجول بين أوجه الحاضرين بحثاً عن شخص معين. ولدهشة الجميع توقفت فجأة أمام روم وبدأت تقوم بحركات متواجرة بطيئة متحدية إياه أن يرفض الدعوة الصريحة التي كانت تقدمها بكل وضوح.

وشعرت مارييل وهي بجواره بتوتره وبالغضب المتصاعد من قرارة نفسه. وبعد فترة من التردد قفز إلى الحلبة لينضم إلى لالا في الرقص. وعندما أحاط بيده خصرها هزل الحاضرون وصفروا معبرين عن رضاهم، ثم انضم إليهما اثنان من الراقصين وتلاهما آخران حتى أصبح كل ما تراه مارييل من روم هو وجهه الضاحك كلما ظهر لها من بين الراقصين. وكان الرقص بالنسبة لهم جميعاً تحدياً شخصياً يتبارون فيه فيما بينهم. وقد تقدم شباب الفجر ودخلوا الحلبة وأخذوا يدقون على ركبهم ويصكون بكعوب أحذيتهم معاً في تناوب رتيب على الأرض وهم يدورون بزميلاتهم بحماس شديد بعث الصيحات المرحية من أفواه الفتيات.

وكانت مارييل سابعة في تأملاتها حتى أنها فوجئت بصوت هادئ يقول لها:

«أقبل الفتاة الأجنبية مشاركتي الرقص؟»

ورفعت رأسها ورأت شاباً جاداً لم يخف صوته اللطيف حيويته التي حاول إخفاءها، لكنها ظهرت في عينيها الجريبتين. وقلت منها الألفاظ قبل أن تتيج لنفسها وقتاً للتفكير:

«لا أستطيع...»

وتابعت نظرتة نظراتها التي كانت توجهها نحو روم، وسألها الشاب بتهكم وجرأة:

«لا تستطيعين؟ أو لا تجرؤين؟»

وأسمعها الغضب، الذي كانت تحاول كبته، وأخذ النار التي أراد أثارها بها. وشعرت بدون سبب تعرفه بالاهاة أمام جميع أهل المعسكر عندما هجر روم مجلسها إكراما للالا والرقص معها، وقد أثبت تلميح الشاب الفجري صحة شكوكها لذلك استدارت بحرارة لم يتوقعها في بنات جنسها واستجابت لدعوته، مما بعث بالابتسامة المشرقة إلى وجهه:

«نعم، سأرقص معك..»

«اسمي كاليا..»

«شكرا يا كاليا...هيا بنا..»

وأعجبها طريقة رقص الفجر حيث يمسك الراقص بالراقصة بشدة حتى لا تستطيع التنفس، ويقرب وجهه من وجهها حتى تضطر إلى تقويس ظهرها إلى الخلف محاولة الأفلات من قبضته. ومما زاد في حجة ضمها إليه الازدحام الشديد من حولها. وقد طال الرقص بلا انقطاع. وبعد حوالي نصف ساعة من المرح تمت لو أمكنها أن تضحي بأي شيء لتتخلص من قبضة مراقصته وعواطفه الجياشة. وسنحت لها تلك الفرصة عندما اصطدم كاليا براقصين آخرين. فأرتطمت أقدام الراقصين المسرعين بكاحل مارييل التي صرخت من الألم وانهارت في تراخ. وارقت إليه وهي تقاوم موجات من الألم الشديد.

وشتم كاليا الراقصين اللذين ارتطما بها بكلمات لاذعة، وعندما التفت إلى مارييل للعناية بإصابتها هجم الراقص، الذي تسبب في الحادث على كاليا، مما اضطره إلى ترك مارييل قبل أن يترنح من أثر اللطمة التي أطاحت به مرتطبا ببقية الراقصين. وسرعان ما أثار

الغضب الذي أشعله كثرة الشراب هياج الجميع وانقسم الرجال على بعضهم، وتحيز كل منهم لأحد المتشاجرين مما دعا النساء إلى الصراخ والجرى طلباً للاحتواء في مكان أمين، وأطاح الرجال بعضهم بعضاً في معركة استخدمت فيها الأواني والصحون وكل ما توصل إليه المتشاجرون. كما استخدمت فيها الأيدي والأرجل والرؤوس كالأغنام المتناطحة، فكان منظراً مفرزاً لمارييل. تحاملت على نفسها وبجهد جهيد وصلت إلى إحدى العربات وقد أغمضت عينيها حتى لا ترى مجون الوحشية!

وسمعت صوت صفارة يعلو فوق صوت المعركة، إلا أن أحداً لم يلتفت إليها. وتلتها صفارة أخرى طويلة تخللت الجلبة الشاملة التي عمّت الجموع المحتشدة، ونجحت في تهدئة المشاعر الملتهبة والحد من اللكيمات المتبادلة. وعندما سمعت صوت روم من بين الأصوات التي سمعتها عن بعد، فتحت عينيها ورأت قامته الطويلة تسيطر على جموع الرجال، وخرجت من فمه كالسيف كلمات التأنيب والتعنيف لتهورهم وتصرفهم الطائش معبراً عن احتقاره لهم بكلمات بعثت حمرة الخجل إلى وجوههم وجعلتهم يستديرون ليتجهوا نحو عرباتهم. وعندئذ رفعت نبرات صوت لالا الواضح رؤوسهم المنحنية. كانت كلماتها عنيفة وعيناها ممتلئتين بالكراهية. مدت لالا أصبع الاتهام نحو مارييل وصرخت:

«إنها هي تلك المرأة الأجنبية التي أثارنا المتاعب. إننا لم نحذ وجودها بيننا من بادية الأمر لكنك أنت يا روم الذي صممت على بقائها، لذلك يجب أن تتقاسم معها اللوم وتنال نصيبك منه.»

ثم استدارت نحو الجموع الغاضبة وقالت وهي تتعمد إشارة

## ٤ - مفاجأة المحاكمة...

شرح روم لما ريبيل بتبرم وألغاز رتيبة، التشكيل القانوني لمجلس القبيلة القضائي الذي يرأسه عدد من القضاة اكتسبت حكمتهم على مر السنين مركزاً أسطورياً. وقد ساعدت قراراتهم عبر أجيال لا تحصى على كبح جماح المجموعات الأقوى من الغجر التي تفرض إرادتها على المجموعات الأضعف. ولولا احترام الغجر لمجلسهم القضائي لمهبطوا إلى مستوى مجتمع يسوده الفساد. وأدركت مارييل من كلامه مدى استيائه من الموقف الذي وضعته فيه الفتاة لا بدائها الذي أثار به المشاعر، كان شيئاً مهيناً لكرامته وكبريائه أن يقف هكذا متهاً.

وكانت مارييل تروح وتجيء في عربتها وهي تشعر بنظراته تتابعها بغضب واستياء. ولما لم تعد تحمل الصمت بينها قالت له مستعطفة:

«أنا لم أخطيء أبداً... فكيف لي أن أعرف أن مراقصة كاليا ستكون لها هذه الأصداء؟ وفي أي حال كرهت كل دقيقة من الرقص معه ولو أنك لم تتركني وحدي كما فعلت، لما حدث شيء من هذا».

وكان روم يستند إلى الباب بدون اهتمام بها. لكن اتهامها إياه بإيهاها أشعل مشاعره وجعله يتصرف بعنف، فبخفة حركته المبهودة تقدم نحوها واقترب منها فاضطرت أن تشيح بوجهها بعيداً عنه وانتظرت هبوب العاصفة، واثقة أنها أمدته بالعذر الذي كان يبحث عنه ليمطرها بكلماته اللازمة. إلا أنه لم ينطق بكلمة. بدلاً من ثورته

غضبهم:

«يجب إبعاد تأثير هذه المرأة السيء عن قبيلتنا، فإذا لم يطردها روم بورو ورؤساء القبيلة الذين وافقوا على وجودها، يجب أن نتقدم لمجلس القبيلة ليدي برأي العدالة. هل توافقون كلكم على ذلك؟»  
ووصل صوت هدير الموافقة إلى أذني مارييل وهي ترتعد وقد استندت إلى جانب العربة. ترمى إليها الصوت مخيفاً مثل صوت حشد تجتمع حول المفصلة متعطشاً للانتقام...

بذ الجو المتوتر بينها بابتعاده عنها ليصب لنفسه شيئاً من الشراب:  
جلس على السرير واستند على منكبه ليشرب بتلذذ واضح. وبعد أن  
انتهى من الشراب أذهلها باعترافه قائلاً:

«أنت على حق، وضعتك تحت حمايتي ونسيت واجبي نحوك ونحو  
رفاقي، لذا أستعق العقاب. لكن الله وحده يعلم كم سيكلفني  
تصحيح وضعي في عيون عشيرتي واسترداد مكائتي بينهم».

ثم عبر عن غضبه وضيقة بالقاء الكأس من يده على الأرض  
فتحولت إلى قطع صغيرة تبعثرت في جميع أرجاء العربة. فأنهارت  
مارييل وارتقت على السرير، وقد خانتها شجاعته. بينما صفق  
روم الباب وراه خارجاً من العربة تاركاً إياها ترتعد وكلماته  
الغامضة تجول في ذهنها. ترى ما هو العقاب الذي ينتظره من هذه  
القبيلة الهمجية؟ وجالت بخاطرها أهوال كثيرة لكنها استبعدتها  
باعتبارها أوهاماً لا أكثر. ولكنها لم تستطع أن تمحو ذكرى ثورته  
عليها. وأوحت لها غريزتها أن هناك كارثة قد تسببت في القلق الذي  
أبداه روم بورو، وهو الشخص الذي يطلق عليه الفجر القساء اسم  
الرجل العظيم.

ولعدة أيام، وبينما القافلة تسير، ظل الحادث يراود ذهن مارييل رغم  
محاولة روم تغاضيه. كان القلق يلازمها طيلة الوقت ويمنعها من  
استيعاب شبكة اتصالات الفجر. ففي كل نقطة من الطريق توجد  
إشارات عديدة تركها الفجر الذين مروا قبلهم. كما كانت هناك قطع  
من القماش الملون معلقة على غصون الأشجار لترشد القوافل التي  
تأتي بعدها.

وبدلاً من أن يخرج القافلة عن الطريق كما توقعت مارييل، تقدم

الركب ببطء وثبات وانضمت إليه عربات أخرى عند مفترق الطرق  
حتى امتد طابور العربات إلى مسافة عدة أميال. ولدهشتها اكتشفت  
أن الاتصال التليفوني الحضاري، إجراء يقره الفجر، أما الأغراب من  
الأصدقاء فأستخدمهم الفجر كنقاط للاتصال. وكانت الرسائل الهاتفية  
والبريدية من شتى البلاد ترسل إليهم ويقومون هم بتوصيلها إلى  
الفجر. وعلمت مارييل أن لروم اتصالاته الشخصية، شأنه في  
ذلك شأن أعضاء القبائل الأخرى. ومقابل هذه الخدمات كانت نقاط  
الاتصال هذه تمنح ولاءً، خاصاً لا يتمتع به إلا القليلون.

وشعرت مارييل أن المجلس القضائي يزداد أهمية كلما اقتربت  
القافلة الزاحفة من مكان تجمعها مع غيرها. وكان الجميع يلتزمون  
الصمت في حضورها وحضور روم. ثم يجهون هامسين فيما بينهم  
بأصوات خافتة عندما يكونان بعيدين عن سمعهم. ولم يعلق روم  
على تغيير معاملتهم، كما لم يبد اهتماماً بذلك. ولكن عندما انطوت  
الأميال تحت عجلات القافلة، ظهرت المرارة على ملامح وجهه وجاءت  
الكلمات التي كان يوجهها إليها مقتضبة حتى أنها ثمنت، وعيناها  
تدمعان، أن تصل سريعاً إلى نهاية رحلتها. فكلما اقتربت من النهاية  
زادت راحتها. وعندما لمحت في الأفق تجمعاً كبيراً من القوافل، لم تشعر  
بأي خوف، بل شعرت براحة جارفة تطمئننها بأن محنتها ستنتهي قريباً.  
إما بالخير أو بالشر.

وكان مقر المعسكر الجديد واسعاً ومحطاً لقوافل عديدة مبعثرة على  
مساحة شاسعة، ورأت شباناً يدفعون بعربات الأمتعة وهي تهتز يميناً  
ويساراً محملة بالملء التي تكفي لمدة طويلة. وحتى الأطفال كانوا  
منهمكين في جمع الحطب اللازم لايقاد النار. ودخلت كوري العربة في

اللحظة التي استدارت فيها مارييل مبتعدة عن الناظرة. وقد تعبت من التدقيق في الظلال الغامضة التي تتحرك في ضوء النار البهيد. فبعد وصول القافلة بقليل كان روم قد اختفى مؤكداً عليها قبل انصرافه بقوله:

«أبقي داخل العربة حتى عودتي، فاختلفك عن نظر القبيلة أفضل لك حتى تنتهي المحاكمة».

وكان المفروض أن تغضب من معاملتها كسجينة، إلا أن تفكيرها كان مشوشاً حتى أن أوامره المشددة لم تثر فيها شيئاً غير الازعاج وذلك بإيحاء من رأسها. وجاءت إليها كوري تحمل بطيخة كبيرة وقالت لها:

«أتيت لك بهدية».

وكانت تحاول أن تبدو عادية منشرحة الصدر، إلا أن القلق تغلب عليها وبدا في عينيها. ومع ذلك أخذت تقطع البطيخة بسكين حادة، وتقسّم قلبها الأحمر الذي تتخلله البذور السوداء اللامعة إلى قطع صغيرة. وعندما قدمت لها كوري قطعة لتفريها على أكلها قالت لها:

«لا أشعر بالجوع».

و فعلاً رفضت قطعة البطيخ التي قدمتها كوري التي نسيت أمر الفاكهة وناشدت مارييل قائلة:

«لا تحزني هكذا يا مارييل، فليست القبيلة كلها ضدك، فهناك كثيرون مثلي ومثل روبا يعلمون بفكرهم الصائب أن الحقد هو الدافع لاتهامات لالا. فقد سبق أن نهتكت إلى أن لالا هي عدوك اللدود».

وظهر الألم على مارييل وهي تجيب هامة:

«بالنسبة إليّ، لا أهتم بأمر القبيلة، لكني لا أريد لروم أن يتألم، فإذا قرر المجلس القضائي أن يسلمني إلى سيرجي إيفانوف فإنني لن أعترض على قراره أو أشكو منه طالما سيقع العقاب عليّ أنا وحدي. لكن ماذا سيفعلون بروم يا كوري؟»

قالت ذلك وعيناها تعبران عن كل معاني الخوف. وعندما أخذت في البكاء طوقتها كوري بذراعيها محاولة تهدئتها وقالت لها:

«إن رجال المجلس قضاة عادلون، فلا تخافي من حكمهم كما أن روم معروف ومختبر بين عشائر الفجر بحيث لن تؤثر فيه اتهامات لالا وأمثالها، بل ستزول عليه برذاً وسلاماً. ولسوء الحظ أن روم قد أعلن أنه ولي أمرك، وحسب تقاليدنا يعتبر هو المسؤول عن تصرفاتك، ولا بد سيصدر المجلس العيب الذي أخذه على عاتقه».

وكان لكلمات كوري التي قالتها بثقة وإيمان وقع حسن في نفس مارييل التي توقفت عن البكاء وقالت لكوري:

«أرجو أن تكوني على حق في تأكيداتك. فحتى لو جاء حكم المحكمة هيناً فهل سيصفح روم عني؟»

وطافت ابتسامة على فم كوري عندما قامت لتنصرف وقالت:

«إذا كان شعوره مثل شعورك فلن يكون عفوهُ مشكلة على الإطلاق».

فرددت مارييل كلامها بدهشة قائلة:

«... شعوره مثل شعوري؟»

مشت كوري نحو الباب وقالت تداعبها:

«طبعاً... لا بد أنك تحبين ذلك الذي يسبب لك الغضب، كما يسبب لك البكاء».

واجتمع مجلس القبيلة القضائي بعد ظهر اليوم التالي. مبتعداً عن

جموع الغجر الذين عبروا أميالاً كثيرة لحل مشاكلهم. وزادت رهبة الموقف عندما اتخذ القضاة أماكنهم في نصف دائرة وعقدوا جلستهم بوقار لكن بلا خيلاء. وانتظرت مارييل وروم حتى يأتي دور قضيتهم في جدول أعمال المجلس. وكانت هناك عدة شكاوى مقدمة للنظر فيها قبل قضيتها، وقد أجل المجلس بعضها بينما بت في الأخرى بطريقة أرضت أصحابها. وبعد ساعة كاملة من عذاب لا يحتمل، سمعت اسمها ينادى عليه. ومن لطفها بدأت تتقدم بسرعة نحو أعضاء المجلس إلا أن روم أمسكها من ذراعها مشيراً بحركة من رأسه إلى أن لالا مائلة أمام القضاة، وقد أخذت تعرض قضيتها بطلاقة فائقة وهي ترمي أعضاء المجلس بسهام لحظها الفتاك معبرة عن تهور روم ومعارضتها له في فرض فتاة اجنبية ذات تأثير سيء على أفراد القبيلة. أخذ قلب مارييل يدق بشدة عندما شعرت أن توسلات لالا قد لاقت عطفاً من مستمعيها.

ولم تجرؤ مارييل على النظر إلى روم. فمنذ سمعت تعليق كوري، أصبحت أية كلمة عادية أو أية حركة تصدر منها تعطيها شعوراً بالتحجج، يحول كل اتصال بينها إلى سكون مطبق. ترى ماذا كانت كوري تعني بكلامها؟ هذا هو مدار في خلدها وهي تسمع صوت لالا. لقد أغضبها روم مراراً في مناسبات عدة، أما أن يكون السبب في دموعها فهذا مالم تصدقه أبداً.

وقطع عليها روم أفكارها قائلاً:

«إنهم ينتظرون، وانت تختارين أخرج الأوقات للاسترسال في أحلام اليقظة التي تتناكب أحياناً».

ودهشت لكلماته واصطبغت وجنتها باللون الأحمر، وعندما سارت

خلفه وهي تتعثر في خطاها عبر المسافة المغطاة بالأعشاب بدا لها أعضاء المحكمة وكأنهم شرسون مثل حد السيف.

وواجه روم القضاة بكبرياء وشمم وهو يبدي استياءه من الاجراءات التي يتخذها المجلس. وعندما أخذ أعضاؤه الصامتون ينظرون إلى مارييل بنظرات فاحصة، اقتربت من روم طلباً للحماية من العداء الذي شعرت به من جميع المحيطين بها ووجه أكبر أعضاء المحكمة سناً كلامه إلى روم قائلاً:

«لقد سمعنا من مجلس قبيلتكم السبب الذي دعى لقبول الفتاة معكم ونحن موافقون على قرارهم».

فتفتست مارييل الصعداء، إلا أنها دهشت عندما استأنف كلامه قائلاً:

«إننا جميعاً ندين للرفيقة صوفي بالولاء ولا يمكن إغفال أي طلب تتقدم به، ولكن نعلينا في الوقت نفسه مراعاة صالح القبيلة. لذلك يجب، قبل أن نصدر حكمتنا يا روم أن نتأكد من أنه لن يسمع إطلاقاً للفتاة التي تحت رعايتك بأن تغفلت من رعايتك ثانية».

وسعل روم قبل أن يجيب إلا أن مارييل أوقفته. فبعينين رماديتين كلها جدية. نظرت إلى هيئة المحكمة وقالت لهم مؤكدة موقفاً:

«أعدكم ألا أفعل شيئاً بعد الآن وأن أطيع أي أمر يصدر إليّ بشرط أن...»

غير أن روم نهرا بعنف وأسكتها. أخرس كلماتها على لسانها. وبدهشة حملت في وجهه الغاضب وأخذت تشك في نفسها خشية أن تكون قد اقترفت ذنباً جديداً. وسمعت همهمة من الغجر أكدت مخاوفها

حتى قبل أن يقول لها روم من بين أسنانه المطبقة من الفيظ  
«لا يوجه الكلام المباشر للمحكمة إلا عن طريق الرجال، وإذا أرادت  
امرأة الكلام يجب أن يكون ذلك عن طريق وسيطه.

فهاها ضخامة جريمتها وقالت بخوف:

«إنني أسفة... فقد فكرت...»

فقاطعها روم قائلاً:

«لا تفكري ولا تتكلمي ولا حتى تتحركي.»

وشعرت مارييل بالمهانة وهي تقف ساكنة لتستمع إليه وهو  
يعتذر نيابة عنها. وبجهد جهيد، وبعينين مسبلتين بدت ذليلة بحيث  
هدأت من روع القضاة. ووجه روم كلامه للمحكمة.

«إنني أطلب سإاحكم بالنسبة لتصرف الفتاة التي تحت وصايتي،  
فهي إلى جانب جهلها بعباداتنا، عنيدة وتعند بما تعتبره تصرفاً متحرراً.»

فذهلت المحكمة لفكرة تطلع المرأة إلى الحرية، واغتاطت مارييل  
عندما تبذرت دهشتهم وبنات على شفاههم ابتسامات التعجب  
والاستهزاء. وشعرت أن نظرات الاستهجان لن تحيدها عن الدفاع عن  
موقفها... وكادت فعلاً أن تتكلم لو لم يلحظ روم وجهها المتجهم  
ويقرر أن يتدخل في الأمر. مد يده وضغط بها على ذراعها مسيئاً لها  
ألاماً مبرحة جعلت الدموع تظفر إلى عينيها، لكنه أرغمها على الطاعة  
بتصرفه هذا، ولم يترك ذراعها إلا بعد أن هزت رأسها علامة على  
الاستسلام.

وبدون انتباه إلى تضارب إرادة كل من مارييل و روم، أخذ  
المحلفون في التشاور وهو ينظرون حولهم من أن لآخر كما لو كانوا  
يستلهمون الاطمئنان إلى قرارهم. وكان روم يرقب مارييل

باهتمام على فمه وهما في انتظار حكم المحكمة. ولاحظت مارييل  
أن روم كان يشعر في تلك اللحظة بارتياح لم يشعر به طيلة اليوم.  
واستشفت من ذلك أن الأمور تسير سيراً حسناً. وحمدت الله إنه لن  
يضطر إلى تقديم أية تضحية بسبب تصرفها كما كان يتوقع. وبعد  
كثير من المداولة وتبادل الآراء الهامسة رفع أكبر القضاة سناً رأسه.  
وشعرت مارييل بتوتر أعصاب روم والرجل ينظر إليه ملياً.  
ولسبب لم تفهمه، احست بأن الرجل الكهل كان متعاطفاً مع روم  
عندما قال موجهاً كلامه إليه:

«يوجد تصرف واحد يبند شكوك أفراد قبيلتك في قدرتك السيطرة على  
هذه المرأة. فهل تقبل الموافقة على هذا التصرف؟»

ولم يحرك روم ساكناً، إلا أن اضطراب تنفسه كان دليلاً على  
خوفه. ولفترة وجيزة جال بعينه في وجه مارييل الذي علتته الدهشة  
وخرج الرد متعثراً من بين شفثيه:  
«نعم أوافق.»

وساد المرحج بين جموع الناس مثلما يعصف الريح بأشجار الغابة،  
ولكن أحداً لم ينطق حرفاً.  
«الفتاة... هل توافق على ذلك؟»

والجهت الأنظار نحو مارييل وهي تحاول أن تفهم معنى السؤال  
الغامض. ترى ما هو الشيء الذي يطلبون موافقتها عليه؟ واقتررب  
الناس منها وهم يتوقون إلى سماع ردها. واتضح لها أن هناك قراراً يجب  
أن تتخذه. وقد فرض عليها فرضاً. ولم تعرف الشيء الذي تتعهد بأن  
تلتزم به، لكنها شعرت بواجبها نحو روم. فإذا كانت هي السبب في  
المأزق الذي وضعته فيه. وإذا كانت تريد أن تساعده فليس أمامها إلا

أن تتبعه. لذا قالت موجّهة كلماتها للهواء احتراماً «ليروتوكول» عدم توجيه كلام المرأة إلى المحكمة مباشرة: «نعم أوافق».

وفجأة شعرت كأن السماء قد انشقت من أثر هدير الهتاف الذي خرج من حناجر مئات الواقفين حولها.

ومنذ تلك اللحظة لم تفهم مارييل شيئاً مما حدث حولها، أحست بأنها جزء من تمثيلية صامتة. حركة كثيرة ولكن كلمات قليلة. واصطف نصف أعضاء المحكمة بجوارها، بينما انضم الباقون إلى روم، ثم بدأت عملية المقايضة. قدم مزيدو روم العملات الذهبية التي رفضها مزيدوها بازداراء. وأعيد تقديم مزيد من العملات التي قبلها فريقها لكنه عاد وردها باعتبارها غير كافية. ودار الجدل حول المبلغ المقدم، وهل يليق بها. وكانت، وهي محاطة بمزيديها، تحاول أن تلتفت نظر روم إليها، لكنه إما كان منهمكاً في اللعبة التي تدور حولها، أو كان يعتمد عدم النظر إليها.

وأخيراً انتهت المقايضة وقدم أحد الحاضرين زجاجة من الشراب المعتق إلى روم، الذي شرب منها بنهم حتى نصفها. وعندما اقترب من مارييل شعرت بشيء من الخوف، إلا أن يديه كانتا حائيتين عندما قدم لها الزجاجة، وأفهمها أن عليها أن تشرب هي أيضاً. وعندما انسأب الشراب في حلقها سعلت ثم شعرت كأن ناراً تحرق كل شريان فيها وتلذها بوهج ساخن. وفجأة هتف الجمهور، وانحنى روم ورفعها بين ذراعيه. وتملكتها الدهشة لسرعة تصرفه، إلا أن تأثير الشراب منعها من المقاومة عندما تقدم بها إلى باب عربتها يتبعها جموع الغجر وهم يغنون. وعندما دفع الباب بقدمه ودخل العربة لم تحتج. ولكن

عندما خرج الجمهور الضاحك وتركها بمفردها في فراغ من السكون بدأت تساورها الشكوك والمخاوف.

وأزلتها روم على السرير. وعندما بقي معها بدلاً من أن ينصرف، وأخذ ينظر إليها بدأت ترتعد، لكنه ضحك منها بلا رحمة ثم مد يده ليداعب كتفها العاري الذي كشف انحسار البلوزة عنه. وابتعدت عنه غير مرحبة بمداعبته، بينما أخذ الدم يتجمد في عروقها، وتوسلت إليه قائلة:

«أرجوك ان تنصرف».

«ماذا؟ وأخيب ظن جميع أصدقائي فينا؟»

«تخيب ظنهم...؟ إنني لا أفهم شيئاً مما تقوله...»

فاقترب منها أكثر وقال متمتاً:

«لا... بالطبع لا... كيف تستطيعين أن تفهمي؟»

ثم تابع ساخراً بعينين متقدتين كالفحم المشتعل:

«لقد اشتركتنا لتونا في عرس على الطريقة الغجرية... فأليك يا زوجتي

زوجك الجديد...»

كانت مارييل تحمق في روم، بعينين شرستين لا تصدقان شيئاً، عندما دخلت كوري إلى العربة وهي تحمل ثوباً من الساتان الأبيض ودفعت بروم نحو الباب وهي تداعبه قائلة:  
«أفهم سبب تلهفك، لكنك تعلم أن العروس دائماً تتمنع، ويجب أن تصبر وتناضل لتأسرها».

وبعد أن حياهما روم مستسلماً وخرج، التفتت كوري إلى وجه مارييل الشاحب وعينيها الخائفتين وسحبتهما من السرير لتوقفها على قدميها قائلة لها:

«من الأفضل أن يبدو عليك الخوف، وتكفي أفراد القبيلة نظرة واحدة إليك ليعرفوا أنك عذراء تهاب زوجها الجديد».

زوجها! لقد وخزت الكلمة كيانها وحواسها وأعادتها إلى صوابها، لكنها استدارت بحدة نحو كوري قائلة:

«إنه ليس زوجي، خدعوني وجعلوني أشترك في تمثيلية لا تخصني ولا تعني لي شيئاً ولست ملتزمة بها».

«لكنك وافقت عليها وقد سمعتك بأذني».

قالت ذلك كوري مترددة وقد بان عليها الغضب.  
«إن السؤال لم يحدد لي، ولم أعرف الشيء الذي وافقت عليه. فكيف لي أن أتنبأ أن المقصود هو الزواج، في حين أنني لم أتلق طلباً للزواج أو حتى اهتماماً من الرجل المشترك معي في هذا الموضوع؟ فالموقف إذاً أتفه من أن يستحق البحث والجدال».

وتوقعت مارييل من كوري أن يجادلها أو تطلب منها الالتزام بحكم المحكمة، لكنها لم تفعل شيئاً من ذلك، وسرعان ما قالت محاولة أن تهدىء من ثورة مارييل:

«نحن نساء الفجر لا يحاول أزواجنا مغالزتنا وكسب ودنا إلا بعد الزواج. ولا يحق للرجل أن يتقدم مباشرة لطلب يد الفتاة التي اختارها، بل عليه أن ينتظر حتى تتفق أسرته وأسرته على مبلغ معين يدفع مقابل الزواج، لذلك اضطرت المحكمة أن تتدخل في حالتكما. بما أنه ليس لروم ولا لك أسرة أو أقارب يقررون مصيركما، انقسم أعضاء المحكمة إلى فريقين، أحدهما يحدد ثمن العروس والآخر يحاول أن يخفض الثمن. وقد دفع فيك ثمناً غالياً بالرغم من أنك عنيده، فإن روم مدين لك بمبلغ كبير لكسب ودك».

وسألته مارييل بمهانة:

«أتعنين أنهم اشتروني؟ وهل تتوقعين أن أعتبر تبادل العملات والمشاركة في شرب زجاجة شراب إجراءً قانونياً ملزماً للزواج؟»  
ومالت برأسها في كبرياء واستطردت تقول:

«إنني فتاة غربية متعلمة يا كوري، وعندما أتزوج سيكون ذلك من رجل يحترم احتياجاتي الفكرية والجسدية. وبالتأكيد لن أقبل أن أباع مثل السلعة التي تعرض للبيع في المحال التجارية».

فهزت كوري كتفيها وانزلت منها الثوب الحريري الذي كانت تحصله إلى الأرض.

«فإن أوان الاعتراض، فإن الجزء الأهم من الزواج قد تم فعلاً. فأنت الآن ملك لزوجك ولسانه يتكلم باسمكما، وتصرفاتك محسوبة عليه، فلا تحاولي أن تتخطي حدودك، غضب الزوج الفجري لسوء تصرفات

زوجته يجب أن يظهره للجميع حتى يحتفظ باحترامه في أعين قبيلته،  
لذا فإن مبادئك الغربية المتعجرفة لن تجدي في مواجهة يد الزوج  
الغاضب».

فضحكت مارييل باستخفاف، وقالت وهي تعلم أن في  
استطاعته إيذاءها:

«إنه لا يجرؤ على ذلك»

وعندما أخذت ترقب كوري وهي تحاول فرد ثوب الزفاف الذي  
التقطته من الأرض، كان ذهنها يحاول استيعاب المأزق الذي لا  
تصدق أنها وقعت فيه. فبالنسبة للفجر أصبحت الآن زوجة لأحد  
قاداتهم، أي لشخص لا يتوقع الناس منه أية أخطاء. وبدون قصد  
أفلتت منها تهيدة عندما تذكرت فجأة مظاهر الضجر التي ظهرت على  
روم عندما سمع حكم المحكمة، فبينما كانت هي تخشى أن ينال  
عقاباً تجهله، كان هو يتوقع، وهو على حق، أن النتيجة ستكون ربطها  
برباط الزوجية. ولكن ما هو موقف صوفي التي جاء اسمها دون أن  
تتوقعه على السنة الفجر؟ ولم يستطع أحد، ولا حتى كوري، أن  
يناقش معها سبب الولاء الذي يدينون به لحالتها. لكن اتضح لها أنها  
محبوبة منهم جميعاً، حتى أن روم فضل أن يتحمل التضحية  
بالزواج من امرأة يحقرها على أن يضر سيدة يحبها. عندئذ ارتعدت  
من هول الموقف، وبهدوء توصلت إلى قرار، إن وجودها لم يجلب إلا  
المشاكل لحالتها و لروم ولقبيلة الفجر بأكملها، لذا شعرت أن من  
واجبها الابتعاد عنهم والعودة بطريقتها الخاصة إلى انكلترا قبل أن  
تتورط أكثر من ذلك في حياتهم.

كانت استعدادات الزفاف على أشدها عندما سمعت طرقاتاً على باب

عربتها. ولم تهتم مارييل بالتقدم لفتحها، فقد ظلت طيلة بعد الظهر  
بمفردها تخطط لهربها، ثم تعود وتستبعد الخطط من ذهنها المتعب لصعوبة  
تنفيذها. فلم تكن لديها تقود، كما لم تكن لها وسيلة انتقال، إلى جانب  
أن الملابس التي ترتديها ستلفت إليها الأنظار حتى في مدينة مزدهجة  
بالناس. وكان رأسها يعج بالأفكار عندما سمعت الطرقات على الباب  
للمرة الثانية. وبتناقل جرت قدميها وتعثرت في مشيتها نحو الباب.  
وفجأة تذكرت أن كوري وروم لا يهتمان بالطرق على بابها عند  
دخولها، لذا هيأت نفسها لأن يكون الطارق غريباً عنها. وعندما رآته  
شبهت من المفاجأة وقالت:

« كاليا! »

ودهشت مارييل من جرأته على مخالفة تقاليد القبيلة بالمجيء إلى  
بابها. ففي عرف القبيلة لا تجرؤ زوجة قائدهم على استضافة شاب  
أعزب، لذا همست إليه قاتلة وهي تنظر حولها في الظلام خشية أن  
يكون هناك من يتجسس عليها:

«انصرف - انصرف في هذه اللحظة، هل تسمعي؟»

وبخفة غزلان الغابة، انسل من ورائها وأغلق الباب خلفه. فقالت  
له بتوسل:

«هل جنتت؟ قد يرجع روم في أية لحظة».

فأبدى كاليا ذهنته، إذ كان من قبيلة فقيرة متخلفة لم يحاول  
أفرادها رفع مستواهم مما تسبب عنه تربية أفرادها الجياع على مبدأ  
الغش والدهاء الذي يظهره في قالب من المداينة الماكرة والكلام  
المعسول. أخذ كاليا في ممارسة هذه الصفات معها فأضفى على  
صوته اهتماماً مفتعلاً بها، جعل قلبها الجريح يشعر نحره بالشك

والتقدير وقال لها:

«كنت قلقاً عليك، لالا تشر إشاعات في المعسكر بأن زواجك من روم كان مصلحة فرضت عليك بسبب تصري. ولا أطيق أن أكون بغباني قد دفعت بك إلى أحضان رجل آخر. قولي لي يا زهرتي الجميلة إن لالا، كاذبة حتى أجعلها تدفع ثمن فعلتها».

وفعلاً نجح قلقه عليها في تخفيف بعض الألم الذي كان يعصر قلبها فردت عليه بسعادة الطفل الضائع الذي يبحث عن مأوى في عالم كبير.

« لالا لم تكذب يا كاليا، ويجب أن أهرب من هنا. هل تساعدني؟ » وطمأنها قائلاً وهو يخفي فرحته بانتصار خطته:

«سنهرب الليلة، لدي خطة مضمونة، إلا أن توقيتها شديد الأهمية أطلب منك أن تثقي بي وتنفذي تعليماتي بدون أسئلة».

انتظر حتى أومات برأسها موافقة، وقال لها شارحاً خطته بسرعة: «اشتركي في احتفالات الزفاف، وتظاهري بأنك عروس سعيدة. وهكذا لن يشك أحد في شيء وسيكون لخطتي حظ أولر في النجاح. وعندما يتقدم الليل وينهمك الجميع في المرح والشراب، سيطلب الحاضرون من روم أن يقوم بطقوس العرس، وحينئذ سأقوم أنا بدوري. وستكون على بعد أميال قبل أن يتنبه الغافلون ويعتوا جياهم للحاق بنا».

وداخل مارييل الشك عندما بدت على قمع ابتسامة فيها دهاء وخبث. لاحظ كاليا ترددها فقال لها:

«إما هذه الليلة أو لا... ولا داعي لأن أذكرك أن غداً ستكون الفرصة قد فاتت...»

وبدا عليه الرضى عندما عاد اللون إلى وجهها مؤكداً له فهمها

للموقف، استعداداً للانصراف وقال عندما وصل للبواب:

«ابذلي قصارى جهدك، وتظاهري بالمرح خاصة تجاه روم، فالأسد الشبعان سيستخدم طاقته في الهدير. لذا احرصي على أن تظل بمخالبه حلوة كالعسل».

وسرعان ما انبعثت في الجو رائحة الطعام اللذيذ الذي كانت النساء منهنمكات في طهوه. فكان الدجاج والأوز يكتسب لوناً محمراً وقد عطر بالزعتر والتوابل، ووضع بداخله حشو من التفاح والزبيب. ووضعت أكوام البصل والبطاطس المحمرة وورق الكرنب المسلوق والمحشو باللحم المفروم والأرز المتبل، وكلها معدة لتقدم مع قطع اللحم الكبيرة المحمرة والمتبلة باليانسون. وكانت الموائد ممدودة وعليها صحون كبيرة مملئة بالخس والبندورة والخيار المملح، واللوبيية المخلوطة بالقلقل الأحمر وصحون من سلطة البطاطا وقطع الجبن. أما الخبز والزبد فقد وضعا في أكوام متراسة كلها معدة لاشباع شهية الناس الذين كانوا يشحذونها بالشراب.

وحسب التقاليد التي شرحها لها روم، لا يأكل العروسان حتى يتم تقديم الطعام للضيوف. وعملاً بهذه التقاليد عاونته مارييل في تقديم الطعام للمدعوين، فكانت تطوف برشاقة بثوب زفافها الأبيض الذي كان يبدو في ضوء القمر وكأنه يذوب في نوره. ولم يترك روم مجلسها طيلة السهرة تقريباً. ورغم أنها كانت تعلم أنه يلازمها تمسكاً مع التقاليد إلا أن تقاطيع وجهه شجعتها على أن تسأله:

«لماذا لم تستخدم الزهور في الحفل؟ فإن الموائد تنقصها هذه اللمسة الجمالية الأخيرة».

فأجابها بطريقة جعلت قلبها يسرع في دقاته:

«يرى العجز أنه يجب ترك الزهور وشأنها كجزء من الطبيعة. كما أن الزهور المقطوفة رمز للموت. ألسنا نحتفل الآن باستمرار الحياة؟»  
استمرار الحياة؟ ولفترة كاد الانفعال يتغلب عليها، لكنها سرعان ما ضغطت على نفسها حتى عادت لعالم الواقع، وكادت تتهمه بتلفيق هذه الأكذوبة الكبيرة، أكذوبة الزواج. عندما تذكرت تحذيرات كاليا لها وتذكرت رغبتها في الرحيل والابتعاد عن روم وقبيلته.  
وأصبح من السهل كلما أرخى الليل سدوله أن تتلاقى نظرات روم بنظراتها من فوق رؤوس ضيوفها المرحين. وكلما تباعدت نظراتها كانت تبحث عنه من فوق رؤوس الحشد الذي يفصلها فتعود إلى جانبه كما يعود الحمام الذي يلجأ لعشه. وأخيراً. وبالرغم من مطالبة الناس ببقائها معهم، وضع ذراعه على كتفها وجذبها إلى جانبه بحركة تملك هزت بشدة إيمانها الراسخ بحرية المرأة. وبينما كانا يرقصان ويضحكان يأكلان معاً كانت تنتظر حتى تهدأ مشاعرها، ولكن لمساته ظلت تثير أعصابها، كما شعرت أن صوته الهادئ الخافت يبدو في أذنها كأنغام القيثارة.

كان يحتضنها بقوة أثناء الرقص، وكانت الموسيقى تنسجم مع مزاجه الذي تحول فجأة إلى عاطفة متأججة. وفي خلفية المكان وبينما كانت تنساب إلى أذنها أنغام خالمة من كهان بعيد، اقتربت شفتا روم من أذنها قبل أن تستقرا برفق على خدها المتورد وقال لها ضاحكاً:

«جلدك مثل الخوخة. ترى ماذا تفعلين لو خطر لي أن أعضك؟»

وضم جسدها المرتعش إليه بقوة وضحك بحنان عندما دقت وجهها في كتفه. وأخذتا يتأيلان في ضوء القمر ويقدمان للمتفرجين من العجز

صورة جميلة لعريس وسيم مبتسم غارق في سحر جمال عروسه الشابة المحجول.

نسيت مارييل خطة كاليا وهي تستسلم تماماً لعواطف روم فأسندت رأسها على نبض قلبه الذي يدق بثبات وثقة. وانتابها شعور جارف جعلها تؤمن بأنها ستعيش سعيدة إلى الأبد بين هاتين الذراعين اللتين تحتضنها بحنان زائد. كانت تحت سحر تلك اللحظة السعيدة بحيث جاءت الصدمة عنيفة عندما انتزعتها من بين أحضان روم أذرع قوية في مداعبة سخيفة إذ اندست بينها جماعة من الصبية يضحكون وأبعدوها عن بعضها تماماً. وعندما التف حولها الصبية في حلقة متماسكة الأيدي شعرت بحرمانها من روم، ثم تذكرت ما سبق أن قالته كوري لروم من أن عليه أن يناضل لينال عروسه.. فبالرغم من إتمام مراسم الزواج ودفع ثمن العروس والاحتفال بالرباط المقدس بينها إلا أن على العريس أن يناضل من أجل استسلام عروسه له.

وفي بداية المناوشات التمهيدية المرحية، انتظرت مارييل وقد انعكس وهج نار المعسكر عليها وأظهر جمال قوامها المشوق، وفي تلك اللحظة القصيرة بحثت عيناها عن روم ووجدته يبعث لها بابتسامة حلوة وفي الحال أخذ قلبها يغني رغم تحملها لدفع الصبية لها وجذبها.

وكلما ازدادت محاولات الابعاد زاد المرح، وفي ظلام الليل لم يعد في استطاعة أحد التعرف على غيره، لكنها شعرت بأن انكماش حلقة أعوانها حولها أكثر فأكثر معناه تغلب فريق روم عليهم. وزاد الحماس لدرجة أنها لم تستطع حبس صيحتها عندما خرجت يدان من الظلام تبحثان عنها، وكان الصوت الذي وصل إلى أذنيها جاداً وهو

يقول:

«اتبعيني بسرعة واجري بأقصى ما عندك».

لكنها حاولت الافلات منه وهي تقول:

«كلا يا كاليا... لقد غيرت رأبي ولا أريد الرحيل».

ورغم أنها لم تستطع رؤية وجهه إلا أن غضبه ظهر في اشتداد

قبضة يده عليها. ومع ذلك صمم قائلاً قبل أن تنزل يده على رأسها

لتلقي بها أرضاً وسط الألم والظلام.

«بل يجب أن ترحلي!»

وساعدت برودة هواء الليل على إعادتها لرشدها وإخراجها من هوة

الألم التي سقطت فيها لتواجه كابوساً آخراً. وأدركت مارييل أن

أية محاولة للكلام بصوت يعلو على صوت العنان ووقع الحوافر لن

تأتي بنتيجة: تشبثت بجانب العربة وقد تغلب عليها ألم آخر أقوى من

ألم رأسها النابض وهو حسرة قلبها وقد أخذت أضواء المعسكر بناره

الموقدة تتباعد تدريجياً حتى اختفت تماماً.

ورغم أن عينيها لم تدمعا، إلا أن العبرات خنقتها بينما أخذ كاليا

يضرب الحصان ويدفعه بلا رحمة. وعندما اصطبفت سماء الليل

باللون البرتقالي الذي ينمى بيزوغ الشمس انحرف عن الطريق العام

ودخل مساحة بالأشجار حيث أوقف الحصان وقال لمارييل أمراً:

«انزلي... توجد مؤن في العربة، لكننا لا نستطيع أن نكشف عن مكاننا

بإيقاد النار. سنكتفي بأكل الحيز واللحم الباردة».

فنظرت إليه ملياً قبل أن تجيب ببرود:

«إذا كنت في حاجة إلى طعام، أعدده لنفسك، قلت لك إنني غيرت رأبي

وإنني أريد البقاء حيث كنت، ومع ذلك ضربتني».

وبدون وعي مرت بأناطها على الجزء المؤلم في رأسها وقد استعادت

في ذهنها اللحظات المخيفة المذهلة التي مرت بها. لم يسبق أن ضربها

أحد حتى في طفولتها، وكانت هذه المعاملة الوحشية التي تعرضت لها

من ذلك الرجل أكثر مما تحتملها.

وفتح كاليا فمه غاضباً مثل حيوان ثائر وأمسك بذراعها وسحبها

من العربة وألقى بها أرضاً ثم قال لها:

«إذا غيرت رأبك!»

واستطرد يقول وهو يتشفى فيها بصورة جعلتها ترتعد:

«إنني أرثي لحالك. فإن خطي لمساعدتك كانت أئمن مما تستحقين.

لكن روم بورو رجل غني بحيث يستطيع أن يدفع الثمن الذي

سأطلبه منه لاسترداد عروسه سالمة».

وجال بنظره الصارم على وجهها ثم أضاف بعدة:

«بالطبع، إذا أتعبنا ورفض دفع المبلغ فلن أكون مسؤولاً عن

سلامتك».

ثم تظاهر بالرتاء للحالما وهو يستمتع بخوفها وقال:

«لقبيلتي مثل يقولونه وهو، كلما كان لون ثمرة التوت داكناً أكثر كلما

كان طعمها أحلى. إن قوامك نحيل ولونك شاحب أكثر مما أحب. ولكن

إذا لم يدفع روم فلا بد أن أرغم نفسي على...»

وكان يعني ما يقول... فقد كان شريراً بدون رحمة. وهتف بها هاتف

الآتستين بعبارته التي يشير بها إلى قدرة روم على أن يدفع مقابل

إعادتها إليه. إن كاليا قد يرغبها وهو في حماة غضبه على أن تدفع

ثمناً غالياً لتسبح رغبته. لذا التزمت بالصمت وهي تتضرع إلى الله أن

يوحى إليها بالحل. وتساءلت كيف توقعت أن براعي مثل هذا الفجرو

الثرس مشاعرها أو كبريائها.

صغفت مارييل على نفسها وأعدت له الطعام بيتاً أخذ هو  
يعنى بأمر الحصان، وكان عصبياً ومتيقظاً لأي صوت يأتي من حوله  
حتى ولو كان وهمياً. وعينا الزائفتان تفتشان بقلق بين الأشجار وكأنه  
يتوقع ظهور أحد في أية لحظة، ولكن عندما امتد النهار بدأ يهدأ وقال  
لها إنه يعرف محباً يمكنها الاختفاء فيه إلا أنه بعيد عن مكانها ولا  
يريد أن يجازف بالسير نهاراً، لذا رأى أن يسبقها حيث هما حتى يأتي  
الليل قبل أن يستأنفا رحلتها.

وكانت عينا مارييل مثقلتين بالتعب لكنها صممت على أن تظل  
مستيقظة أماً في أن يتغلب تعب كاليا، على مقاومته للنوم.  
ولاحظت وهما جالسان أن رأسه أخذ يسقط على صدره من شدة  
النعاس. وعندما تحولت أنفاسه إلى شخير بدأت تتسلل مبتعدة عنه  
وهي تمشي بخطوات حذرة قصيرة نحو الأشجار المحيطة بالمكان. وكان  
تسللها بطيئاً بحيث بدا لها الوقت وكأنه ساعات طويلة قد مرت قبل  
أن تصل إلى بداية الغابة المحيطة بهما، وشعرت بالدم ينبض في رأسها  
ويطغى على صوت شخير كاليا. وتوقفت برهة لتلتقط أنفاسها ثم  
بنظرة أخيرة نحوه هربت من خلال الأشجار التي تغطي المكان وجرت  
بأقصى سرعتها في اتجاه الطريق العام.

شعرت كأن رثتها تحترقان من التعب وتجعل من تنفسها جحياً  
عندما وصلت إلى حافة الغابة ونظرت إلى الطريق. وكان وجهها  
ويدها دامية من الجروح وثوبها الحريري ممزقاً. إلا أن منظر الطريق  
رفع من معنوياتها وخفف من وقع خطاها وجدد قواها ومشت وهي  
تترنح. وشعرت مارييل بالارتياح ونظرت حولها باحثة عن أثر لأية

حياة لكنها لم تر شيئاً يتحرك حتى ولا بارقة أمل في دخان يتصاعد من  
مدخنة منزل بعيد. وفجأة سمعت عن بعد خطوات غاضبة مسرعة  
نحوها من بين الأشجار وأطلقت شهقة. وبجهد جهيد أخذت تجري، إلا  
أن تقدم كاليا كان سريعاً كما كان تعبها شديداً لدرجة أنها أرتاحت  
عندما قبض بشدة على كتفها. وأدارها لتواجهه وكأنها دموية لا إرادة لها.  
ثم أغمى عليها قبل أن ينزل بيده على رأسها بضربة لوتت. لقتت  
عليها نهائياً.

## ٦ - عقاب الفجر

وعندما عادت إلى رشدها كانت ممددة بين الأشجار، تحرز في معصمها وكاحليها الحبال. بينما دست في فمها قطعة قماش خشنة عليها لثام يشبها في مكانها. أما كاليا فكان ممدداً أمامها مباشرة تحت شجرة وقد علا شخيره دون أن يأبه بالأم سجينته، وهي ملقاة تحت وهج الشمس في منتصف النهار.

وعندما استيقظ من النوم كانت مارييل في حالة هذيان وإعياء شديد من آلام الحبال المكبلة بها، وحرارة الشمس واللحم الحائض الذي على فمها. ولم يبد لها أية رحمة حين انحنى ليحل القيود التي بدأت تؤلمها وكأنها قيود حديدية. وسألها متلمساً اللثام وهو يفكر، هل يرفعه أو يتركه.

«هل أفهم أنك مستعدة للطاعة الآن؟»

فأجابته من بين شفيتها المتورمتين وبعينها المتوسلتين:

«نعم».

ولاحظت على فمها حركة استهزاء بها، إلا أنه فلك الحبال وتركها تلك معصمها وكاحليها لتنشط الدورة الدموية. ومع ذلك لم تلمه أو تنهره حتى/عندما قال:

«هذه مجرد عينة لما سيحدث إذا حاولت الهرب ثانية. فإن وجودك معي معناه الثروة في جيبي، وسيكون غضبي شديداً إذا كانت هناك محاولات أخرى تعرقل خططي. إنني أرثي لرغبتك في العودة لزوجك وأرجو أن تكون لفتته عليك مماثلة للفتك عليه».

وتردد صدى ضحكته في أرجاء المكان، بينما أخذ يبتعد عنها ليقعد جواده. وحاولت جاهدة أن تكتم رغبتها الجارحة في الرد عليه بالاهانات التي يستحقها والتي تضطرم على شفيتها.

وبقي على حلول الليل ساعتان قضتها في إصلاح ما أفسدته القيود من مظهرها، فاغتسلت بالماء البارد لتساعد على تخفيف الورم من شفيتها وذراعيها ووجهها، كما حاولت بأصابعها المبتلة، إصلاح شعرها المشعث وتركته أملس ملتصقاً برأسها. أما ثوبها فكان مشكلتها الكبرى، فقد تمزق إلى قطع مستطيلة تمتد من ركبتيها حتى الأرض. فبدأت في قطع الأجزاء الممزقة منه مراعية أن يكون ذيل الثوب متساوياً بقدر الامكان. وبعد أن رفعت من معنوياتها كامرأة، عادت ثانية إلى المكان الفسيح فوجدت كاليا قد ربط الحصان بالعربة ووقف ينتظر ووجهه متجههم. وبدون كلمة ركبت مارييل العربة وقد أفرغتها فرقة السوط وهو يضرب به ظهر الحصان. وبقفزة فجائية كادت تلقي بها أرضاً، تحركت العربة ثم توقفت فجأة وتراجع الحصان إلى الورا فالتحاً خياشيمه وبأسطاً أذنية دلالة على الخوف من شيء ظهر في طريقه، فأخذ كاليا يشتم وهباً واقفاً، وراح يشد العنان ليحث الحصان على التقدم، ولم يستطع أن يرى شيئاً في ظلام الليل، لذا كان جزعه كبيراً عندما سمع صوتاً أتياً من جهة الأشجار وهو يأمره قائلاً:

«انزل يا كاليا، انزل لتنال عقابك».

وخرجت من فم مارييل كلمة واحدة:

«روم»

وفي لحظة كان المكان يعج بعدد كبير من الفجر الذين خرجوا من بين الأشجار وقد تجهمت وجوههم وتحفزوا للانتقام وهم يطالبون بإقرار

العدل وإنزال الجزاء. وصاحت مارييل وانسلت من جانب كاليا الذي سمره الخوف في مكانه. وجرت نحو روم فدفعها خلفه لتنضم إلى مجموعة المتفرجين الذين كانوا ينتظرون بأنفاس محبوسة أول خطوة يتخذها قائدهم لينتقم من خصمه.

وأرخی الخوف قبضته على جبال كاليا الصوتية، فتمتم قائلاً: «لقد رجعتي المرأة أن أساعدها، فهي تكرك يا روم بورو حتى أنها عرضت علي رشوة لكي أعاونها على الهرب. إن قبيلتي فقيرة وحاجتها شديدة إلى المال فلا تلمني على فعلتي»

أما احتجاجات مارييل على اتهامات كاليا وادعاءاته فقد أخذتها هممة الرثاء التي تصاعدت من الفجر المحيطين بها. وظل روم الوحيد الذي لم يتأثر ولم تظهر عيناه أية دلالة على اللين، بل تجاهل توسلات كاليا وكرر أوامره: «انزل يا كاليا واحضر سوطك معك».

وردد الرجال بغضب وفي همس مخيف، عبارة واحدة هي: نزال بالسياط فتجمدت مارييل من الخوف وضغطت على نفسها لتشاهد نوعاً آخر من الطقوس الممجبة. كان روم قد تمحى الرجل الآخر، وإذا تراجع الآن، فإنه سيبدو للفجر وكأنه أرغم على قبول الإهانة بدون الرد عليها.

وفي الحال تظاهر كاليا بأنه المغلوب على أمره فتراخ أطاع أوامر روم، ومد يده إلى سوطه الذي كان حتى الدقائق القليلة الماضية يلهب به ظهر الحصان. وتظاهر كاليا بالمذلة عندما نزل من العربة، إلا أن روم لم يسمح لذهنه أن ينصرف عنه لحظة. وبينما هو يعد قبضة سوطه انهال كاليا بالضرب. وتلت ذلك شهقة هامة تبعها

ضربة السوط وأمام عيني مارييل ارتفعت يد روم لتغطي خده الدامي الذي هوى عليه سوط كاليا. وأظهر الحاضرون استنكارهم واستياءهم لتصرف كاليا، لكن سرعان ما جاء رد فعل روم، فبيطه فرد سوطه الجلود الذي يشبه الشعبان، وركز نظره على وجه كاليا الماكر، ودار حوله بدهاء معبراً عن غضبة حتى أن مارييل شعرت برعدة خوف نيابة عن خصمه. وابتعد الفجر المتفرجون، وتركوا مسافة كافية يتفادون بها وصول أطراف السياط إليهم. وكانت أنفاسهم هي الوحيدة المسموعة.

ومرة أخرى ضرب كاليا بسوطه. إلا أن روم قفز إلى الخلف وتغادى السوط وبغضب شديد بدأ روم يناوش غريمه. ويضطره إلى تصويب ضربات طائشة استطاع تفادها. وبكبرياء شديدة دار حول كاليا الذي أخذ يتصبب عرقاً ويتقهقر إلى الوراء بحيث وضحت إهائته للجميع. وأخيراً أثارته نداءات الاستهزاء التي وجهها إليه الرجال فبصق كاليا نحو روم بازدياء، قبل أن يتلوى من الألم الذي أحدثته ضربة سوط على فمه، فبحركة سريعة من الرسغ انتقم روم منه.

وكادت مارييل أن تصاب بالغثيان عندما سقط كاليا على الأرض وهو يمسك بفمه المقطوع بأصابعه الدامية. وتراجعت مترنحة ودموع الخجل والخوف تسيل على خديها، كانت حواسها منهارة حين قال لها روم:

«وقري دموعك، فستحتاجين إليها فيما بعد لاثبات تهمتك. فإذا شعرت أن عقاب كاليا صارم فاحمدي الله أنك لم تتزوجي غجرباً أصيلاً، فإن العقاب الذي يوقعونه بالزوجة المخاطئة وحشي لكنه رادع جداً».

واستدارت ببطء لتواجه روم وقالت هامسة:

«ماذا سيفعلون بي؟»

«إنهم سيهتفون فقط بيننا أعابك. وأنا على استعداد للتنازل عن هذه الطقوس، لولا أنهم يتوقعون مني باعتباري قائدهم معاقبة خيانة زوجتي بالطريقة التي تقبلها القبيلة، وهي الطريقة الجسدية».

وبينا هي تحمق فيه بعينين زائغتين، ارتجف فمه متأثراً بألم عميق.

وبدا عليه ضيق لا يحتمل فجزبها وقال لها بمرارة:

«لماذا فعلت هذا؟ لماذا؟ لم أكن في حاجة لأشرح لك أن طقوس الزواج لم تكن لها أهمية بالنسبة لي أو لك، وأنها ليست ملزمة قانونياً أو أديباً بل هي مجرد نزوة أصدرتها المحكمة ويمكن نسيانها بمجرد سفرك».

وتأمل وجهها الشاحب وقهل عند عينيها اللتين تحيط بهما الكدمات، نظر إلى فمها الذي لم تعد تستطيع السيطرة على ارتجافه وقال:

«ليس هناك ما يخيفك مني، فكل ما أريده هو أن أفي بوعدودي لصوفي وأخرجك بسلام من هذه البلاد. ربما كان يتعين علي أن أطمئنك من هذه الناحية، لكنني اعتقدت أن دوافعي واضحة لا تحتاج لمزيد من التفسير».

وقالت مارييل بتردد وهي تحاول أن تسيطر على أعصابها:

«لست متأكدة مما تشير إليه، لكن إذا كان هو ما يدور بخلدك، فاسمع لي بالقول إن غرورك كبير. لقد طلبت من كاليا مساعدتي لأنني سمنت السفر مع قبيلة من المتوحشين الذين تفرزني خيامهم».

ولم يكن روم في حاجة للتظاهر بالغضب عندما قاد العربة بسرعة طائشة إلى داخل المعسكر. وكان الرجال الذين رافقوه في البحث عن كاليا قد عادوا قبله. ودلت نظرات النساء وشفاهن المطبقة على

القصة التي وصلت إلى المعسكر قد جعلتهن يدن مارييل. واندمج روم في دور الزوج الغاضب، فقفز من العربة وانزعج مارييل بقسوة من مقعدها وأوقفها على الأرض بعنف، شعرت بألم في فقرات ظهرها. وكظم غيظة عندما صاحت لالا من بين جموع الناس:

«إنها عنيدة يا روم بورو، فيا لعارك... إذ بلوتنا بمخلوقة لا تستطيع ترويضها».

وكانت مارييل منهكة لا تقوى على المجادلة والشجار. فقد غطت مخاوفها حتى على ثقتها بأن غضب القبيلة لن يهدأ حتى تهان وتضرب علناً. وأشفقت على روم لاضطراره لمواجهة موقف يتطلب تصرفاً كانت تعرف بفريرتها أنه كريد على نفسه، وأخذت ترقبه بهدوء ولكن بلهفة لترى نتيجة صراعه ضد ولانه لشيخين منقسمين: ما تنتظره قيلته منه. وكراهيته المتأصلة للعدوان الجسدي على امرأة. ولم يتوقع أحد غيرها أنه قرر أخيراً اتباع الحل الوسط فعندما مد يده ليمسكها من كتفيها ويزها لتذعن لارادته همس من بين شفثيه المطبقتين:

«تظاهري بالألم... اصرخي وصيحي وافعلي أي شيء يرضي تعطشهم للانتقام»

لكنها لم تقو على ذلك وشعرت كأن حواسها مشلولة بسبب العذاب الذهني الذي عانت منه. ولما يش من رفضها التعاون معه، عاد وهزها بعنف ثم ألقى بها بوحشية فوق كتفه وأخذ يخطو بها نحو العربة، وحينئذ سمع صوت تبرم الحاضريين وهم يقولون:

«إن الحياة بين الأغراب جعلت قائدنا ضعيفاً».

ورد بعضهم قائلاً:

«لن يظل روم إلى الأبد راضياً عن مشاركتنا حياتنا. ويجب أن تستعد لليوم الذي يقرر فيه أن يعود نهائياً إلى أهله وعشيرته».

وكانت ترن في أذنه عبارات اللوم المشابهة، عندما خطا داخل العربة ودفع الباب ليفلقه بقدمه وقال لمارييل وهو ينزلها إلى الأرض:

«أيتها الحمقاء الصغيرة، هل كان من الصعب عليك التمثيل لترضيهم؟ ألم تشعرى بتعطشهم إلى رؤية دموعك وسحاح تضرعاتك وتوسلاتك أو أية دلالة أخرى على العذاب الذي يتوقعون أن تعاني منه الزوجة النادمة؟ لا شك كان في مقدورك اختلاق شيء أكثر إقناعاً من نظرة القطعة الخائفة التي بدت على وجهك».

وكان وهو يقول ذلك ممسكاً بذقنها بيد قلقه حتى انعكس غضبه في العينين الرماديتين. وأخيراً ارتجفت عندما قال لها أمراً:

«إنهم ينتظرون في الخارج، ويأملون أن تكون شكوكهم في غير محلها، وأن يكون قائدهم المختار قادراً على كبح جماح امرأة متمردة».

ثم تابع كلامه بنعومة خطيرة:

«سواء تعاونت أو لم تتعاوني فإنني أنوي ألا أسبب شيئاً من خيبة الأمل للقبيلة».

فحملت مارييل فيه وتبعت إلى معنى خفي في كلماته ثم تراجعت وقد انتابها الخوف لأول مرة، ليس من غضبه ولكن من الابتسامة الغريبة التي بدت على فمه فاستعطفته بوجهها الشاحب:

«كلا... أرجوك، كلا».

لكنه تقدم منها ووجهه يعبر عن تصميم أثار الرعب في نفسها وهو يقول:

«بل نعم!»

ولم تسعفها حواسها المتجمدة من الخوف لترد على مطالبه الملحة. لقد انتهى من التمثيل. فلم يكن تصرفه هذا من أجل إرضاء عروسه بل ليرضي رغبة أثارها فيه وجعلته يود الانتقام منها بأن يراها تتلوى وتطلب عفوه ورحمته.

لقد كانت الضربات في نظرها أهون من شفطيه اللتين حاولتا الانتقام منها بطريقة أخرى. قتلت فيها القدرة الهائلة على الحب الذي كانت ستعده لأن تقدمه له طواعية في وقت من الأوقات. وعندما ابتعد عنها ليتمتع بجمال كتفها قاومته بكلمات غاضبة خرجت من حنجره ضاقت بالانفعالات. وعندما دفن وجهه في رقبتها، ضحك متهاكاً مما أثار روح العدوان المكبوتة بفعل العاصفة العاطفية التي كانت قد تحمستها.

وأخيراً أبعده عنها وصرخت صرخة عالية اخترقت جدران العربة وخرجت إلى أذان جميع سكان المعسكر، وبغضب شديد أنشبت أظافرها في وجهه وركلته وداست على أصابع قدميه بكعب حذائها. وثارت عليها وعاقبها بأن أمسك بذراعيها وضمها إلى جنبها مما تسبب في اختلال توازنها وسقوطها معاً فوق صوان صغير تطايرت منه الصحون وكسرت على الأرض بصوت دوى في أرجاء العربة. وبمجهود كبير أفلتت منه وتراجعت لآخر العربة وهي تقابله بعاصفة عاتية من الغضب إلا أن روم كان مشغولاً عنها بشيء آخر فقد أخذ ينزع قطع الصيني العالقة بملابسه ثم قال لها بهدوء:

«ستنظلي عليهم هذه الخدعة، فكل ما علينا الآن هو أن نلزم الهدوء ونترك الباقي لمستمعينا الذين سيتصورون أن المرأة المتمردة قد روّضت وأتانا الآن في طور المصالحة».

ونزلت ذراعها إلى جانبها وقد صبغ مضمون كلامه وجنتيها بحمرة  
الحجل والاذلال معاً، وهي تلحظ على وجهه تعبيراً ينم عن تسليته بهذا  
الموقف.

ولم يكن هناك بد من بقائه في العربة تلك الليلة إذ أن المبيت خارجها  
قد يشير الشكوك في أذهان رجاله، لذا فرد بطانيته على الأرض وتمدد  
عليها. وبعد أن تمنى لها ليلة طيبة استغرق في النوم. ولدة ساعات  
طويلة ظلت مارييل مستيقظة في سريرها وهي في حالة حذر لا  
تصدّق أنه قد عاد إلى حالته الطبيعية. وبامتداد الليل وانتظام تنفسه  
بعد استغراقه في النوم، سمحت لأطرافها المتوترة بالاسترخاء رغم استمرار  
تضارب الأفكار في ذهنها. ورفعت أصبعها لتتلمس شفيتها الساخنتين  
وكانه قد تركها تواء. ذلك الموقف الذي خدرها لدرجة الاستسلام،  
جعلها تخوض حريين، واحدة ضده والأخرى ضد صوت داخلي دفعها إلى  
الانسيان لاغراء اللحظة. ترى ماذا ستكون النتيجة إذا استمعت  
لذلك الصوت؟ هل كانت ستعرض للصد؟ ثم انتابها نوبة من الحجل  
جعلتها تستسلم لنوم عميق.

واستقبلت اليوم الجديد برائحة القهوة الطازجة وهي تنساب في  
أرجاء العربة. وكان روم قد حلق ذقنه وبدأ عليه النشاط وهو  
ينحنى عليها عندما فتحت عينيها وابتسم لها قائلاً:  
«هل أفزعتك؟ اشربي هذا، فستساعد القهوة على إفاقتك وأبعاد  
الأحلام عن عينيك.»

وشربت القهوة بارتياح وتقابلت أعينها في جدية كالأطفال من  
فوق حافة الفنجان ثم قطب جبينه واستدار قائلاً:  
«عندما تنتهين سأغير فراش السرير.»

وقال مفسراً عباراته وقد بدا التساؤل في عينيها.

«هذا ما يتوقعه الفجر مني، وهي عادة أخرى غريبة يجب أن أحملها.»  
ونظرت إليه مارييل بدهشة وقد حيرتها لهجة القلق البادية على  
صوته، إلا أن وجهه كان لا يعبر عن شيء، فأطاعت وشربت القهوة  
وغيرت ملابسها بعد أن أدار ظهره لها ثم جمعت الملابس وأعطتها لس  
فقال لها بأدب، وهو يحاول أن يتفادى نظراتها الحائرة:

«ربما تودين الاغتسال بينما أتولى أنا أمر الفراش.»

وعندما شعرت أنه يريد التخلص منها حملت منشقتها وخرجت من  
العربة. ثم عادت ثانية مدفوعة بفضول لم تستطع مقاومته. وعندما  
وصلت إلى العربة بدأت تسير ببطء وهدوء ولم تفضح وقع أقدامها  
الصامتة أمر عودتها. كان روم قد وضع الملابس على السرير  
وانحنى عليها يحاول عبثاً أن يسيل خطأً من الدم فوقها من جرح في  
أصبعه وعندئذ نسيت مارييل حذرًا واندفعت إليه قائلة:  
«إنك تنزف يا روم.»

واستدار إليها بغضب وأسقط في جيبه المظواة التي كان يمسكها  
وقال باقتضاب:

«إنه لا شيء... مجرد جرح بسيط.»

شعرت أنها كانت تتجسس عليه وهو ذنب لا يفتخر في أعين الفجر.  
لذا استدارت وهي تحاول ألا تستجيب لرغبتها الطبيعية في تغيير  
الملءة التي جفت عليها نقطة الدم. وعندما انجبت نحو الباب سمعت  
صوتاً من الخارج شل حركتها، انها لا تصيح قائلة والحقد يتخلل  
كلماتها:

«حضرنا لنرى فراش العرس يا روم بوروا.»

وقالت شيئاً بصوت خفيض أثار الضحك بين زملائها. واستدارت  
مارييل بهدوء مطالبة بشرح لكلامها. ولم تتوقع أن ترى روم  
مخرجاً، فقد كان سيد المواقف كلها حتى تلك اللحظة. فبعد أن هز  
كتفيه باستسلام ونظر إليها نظرة يائسة، رفع الملاءات الملوثة بالدم  
وخرج من العربة وأسقطها عند أقدام النساء. وفي المجال أمسكت  
لالا إحداها وفردتها في ضوء النهار وكانت هي الملاءة التي لوثها  
روم بدمه. وعندما رأتها لالا قطبت جبينها من الغيظ. وبحقد  
بالغ قالت لمارييل:

«ليس غريباً أن تأخذ المرأة المشكوك في عذريتها حمامة معها في ليلة  
زفافها»

وعندما استدارت لالا للانصراف، بدأت مارييل تفهم  
مقصدها. وشعرت بمهانة أفقدتها القدرة على الكلام كما لم تستطع أن  
تواجه عيني روم. فرغم أنه حاول جاهداً أن يجنبها هذه الإهانة  
الأخيرة إلا أنها شعرت نحوه بكرامية ولائته على العار الذي نزل بها  
وجعلها لا تجرؤ على رفع عينيها إلى هؤلاء الذين شاهدوا إهانتها.

ورغم حزنها فقد وجدت مارييل أنه من الصعب عليها في الأيام  
التالية أن تتجاهل التغيير الذي طرأ على تصرف نساء القبيلة تجاهها.  
فقد غمرتها بالاحترام الواجب تقديمه إلى عروس قائدتهن وحاولن بشتى  
الطرق أن يشعرنها بأنها أصبحت واحدة منهن. وبما طمأن مشاعرهما  
استعداد كل واحدة من نساء القبيلة لتقديم الخدمات الصغيرة لها أو  
توجيه الدعوات لتناول الطعام مع أسرتها. أما اسم كاليا فلم يرد  
على لسان أحد ولكن قبيلته لم ترحل عند انفضاض المؤتمر الذي عقد  
لمحاكمته إلا بعد أن حكمت المحكمة عليه وعلى قبيلته بأن يتجولوا

إلى الأبد في وحدة قاتلة. إلا أن الحادث ترك شيئاً واحداً في ذهن القبيلة  
وهو أنهم أطلقوا على مارييل اسم «الأوزة المتوحشة» إشارة إلى  
أسطورة غجرية قديمة تقول إنه كان من المستحيل ترويض تلك  
الأوزة، ورغم أنها كانت تفلت من صاحبها، إلا أنها كانت دائماً تعود  
إليه!

وبدأت القافلة تسير، تقرها بمرور الأيام من نقطة رحيلها عن  
روم، إلا أن انكلترا كانت ما زالت بعيدة. ورغم أنهم كانوا  
يسرون في طريق غير مباشر تفادياً لاجراءات الأمن المفروضة إلا  
أنهم اضطروا لعبور حدود النمسا قبل التأكد من الوصول إلى بر  
الأمان. وسألت مارييل روم قائلة:

«لماذا يعتبر السفر عن طريق تشيكوسلوفاكيا أسهل من السفر عبر  
ألمانيا الشرقية؟»

فمد قدميه بطريقة تدل على تيرمه بجمود حركته مدة طويلة. فقد  
هطل المطر طيلة اليوم وغمر الأرض بحيث لم يستطع أي غجري أن  
يبني في العراء في تلك الليلة. وهي فكرة شغلته طيلة الساعات التي  
قضاها روم في دراسة الخرائط العديدة الممدودة أمامه ورسم خطة  
السير. وأخيراً أزاح الخرائط ووجه لها اهتمامه وقال:

«لدينا أصدقاء كثيرون في تشيكوسلوفاكيا، كما أن إجراءات الأمن  
هناك ليست مشددة. فمثلاً يوجد قليلون مثل سيرجي إيفانوف  
ولذلك تفضل القبيلة الابتعاد عن الخطر الموجود دائماً».

وكان ذكر سيرجي إيفانوف كافياً لازعاجها، فقامت مارييل  
وسارت نحو النافذة الصغيرة ووجدت أن المطر قد توقف إلا أن السماء  
كانت ملبدة بسحب أكسبها القمر جمالاً. وقفزت من الذعر عندما قال

روم وهو واقف خلفها وصوته قريب منها بحيث شعرت أن في استطاعتها لمسه إذا أرادت:

«كان يجب ألا أذكر اسمه وأذكرك به».

ولقربه منها حركة أنفاسه خصلة من شعرها، وشجعه جمالها على تكرار الحركة وضحك عندما رآها ترتبك وتتورد وجنتاها خجلاً. وفي تلك اللحظة رأيا نجماً هوي إلى الأرض. ولتلفت نظره بعيداً عنها، أشارت إلى النجم وقالت:

«أنظرا هذا نجم هوي».

فأمراها بحدّة قائلاً وقد تحول من مزاح إلى جدية:

«لا تفعل هذا».

وعندما رأى تغيير تعبير وجهها قال شارحاً:

«يعتقد الفجر أن كل نجم في السماء يمثل رجلاً على الأرض، وأن اختفاء النجم معناه هروب لص.. فإذا أشرنا إليه بأصبعنا فإن الرجل الذي يمثله ذلك النجم يقبض عليه. وقد خرج بعض رجال القبيلة الليلة ولم يعودوا بعد. والعادات كما تعلمين لا تندثر بسهولة، فبالرغم من أننا الآن في مركز يؤهلنا لشراء ما نحتاج إليه من طعام إلا أن البعض يصمم على الحصول على بعض مطالبنا بسرقتها. واقترب منها بحيث كاد لمسه أن يلامس خدها وقال:

«لا يرضي الرجل شيء أكثر من التغلب على نزوات المتعدين سواء كان غزلاً شارداً أو امرأة، فكلها يضيف لذة إلى المطاردة».

وشعرت بضعف عام ينتاب جسمها، فإن جاذبيته الطاغية كانت لوية بحيث كان دفاعها الوحيد هو السخرية، فتشبثت بها بنفس الذهر الذي ينتاب الغريق وأرادت أن تتحرر من سحر جاذبيته فقالت:

«وماذا عن صوفي؟ وكيف يثير جمودها تعطشك للثائرة؟ لا تقل لي إن مظهرها الهادئ الخارجي يخفي وراءه سحراً خاصاً».

وضحكت بانطلاق على مفارقات شخصية خالتها لكنه لم يشاركها ضحكها بل أجابها باستياء قائلاً:

«إن خالتك سيدة نادرة، فكيف تتعجبين من حب كل رجل في المعسكر لها؟ فهي ساحرة لا مثيل لها، سيدة يسعد كل رجل أن يموت من أجلها».

وتساءلت مارييل لماذا ألفتها اعترافاته إلى هذا الحد رغم أنها أكدت فقط ما كانت تشك فيه؟ وبينما كانت تجفف دموعاً مفاجئة سمها طرقت شديداً على الباب جعل روم يستدير إليه ويفتحه ليجد غجرباً مضطرباً واقفاً يقول:

«البوليس! لقد ألقوا القبض على بعض الناس، لكنني هربت منهم أنهم يقتربون من هنا وسيصلون إلى المعسكر في أية دقيقة».

وبسرعة ليس روم سترته وهو يشتم من الغيظ وقد سمع صراخ النساء الذي سبق وصول رجال البوليس.

ودفع الفضول مارييل إلى الباب لترى ما حدث لكن روم كان قد ركله بقدمه عند خروجه بعد أن وضع معطفاً حول كتفي

مارييل وأعطى تعليماته إلى الفجري الذي حمل إليها الخبر:

«عندما أنصرف انتظر بضعة ثوان خذ زوجتي واخفاها فلن نجازف بعثورهم عليها هنا، فبالرغم من بعدنا عن وارسو، أراهن أن أوصافها قد وزعت على كل الدول المجاورة. أسرع وكن حذراً».

وانصرف قبل أن محتج مارييل تاركاً إياها تحمق في الفجري الذي فاق احترامه لقاتله خوفه من البوليس. وانتظر ثوان قليلة كما

أمره ثم طلب منها أن تتبعه. وسمعت مارييل أصوات نباح الكلاب

مع صياح الأطفال وصراخ الأمهات الغاضبات وصغير رجال  
البوليس وثورة الفجر وهرج المعسكر. سمعت مارييل ذلك كله بينما  
كانت تخرج من العربة مع حارسها ويختبان في الأحراش المحيطة بها.  
ورغم اختفائها إلا أنها سمعا صوت روم وهو يهنيء من روع  
المعسكر حتى أصبح في الامكان تمييز الأصوات المختلفة. وهذا كذلك  
رجال الشرطة الذين كانوا يفتشون المعسكر بأصواء كشافاتهم بينما  
أخذ روم يكلم رئيسهم بأدب ولكن بكبرياء قائلاً له:  
«إنني مستعد للاستماع لك إذا تفضلت وشرحت لي سبب تهجمكم  
علينا».

وابتسمت مارييل في الظلام عندما أخرج الضابط ورد بعصبية:  
«فاجأنا أربعة رجال وهم يسرقون الدجاج وقد قبض رجالي على ثلاثة  
منهم، أما الرابع فقد هرب ونعتقد أنه اتجه نحو معسكرهم».  
فقاطعه روم قائلاً:

«لقد انزعج الأطفال والنساء. وحتى الحيوانات حاولت الهرب من  
حظائرها. لمجرد أنك تصورت أن لصاً جرى في اتجاهنا. انظر حولك وقل  
لي إذا كنت تعتقد أن قبيلتي في حاجة إلى تلك الدجاجات الهزيلة».  
وضحكت مارييل ولكن رفيقها أمسكها وهما يتصوران كيف  
حاولت النساء الذكيات إقناع الضابط بكلام روم بالكشف عن  
حليهن الذهبية من أساور وأقراط وعقود لا تستطيع أن تحلم بها زوجة  
ذلك الضابط في حياتها. وهكذا أقنع أهل المعسكر الضابط بخطنه  
بأسرع مما كانوا يتوقعون. وعندما جاء رده مليئاً بالاعتذار والشك،  
استغرقت مارييل في الضحك حين قال الضابط:  
«لقد ضايقتنا منذ أشهر غجر رعاع وأردنا أن نخمد نشاطهم، لكن يبدو

أنا تسرعنا بعض الشيء معكم فمن الواضح أنهم لا يتتمون إلى  
قبيلتكم».

فقال روم بصوت باسم:

«شكراً يا صديقي! عندما أقابل رئيسك سأنقل له إعجابي بحكمتك  
وهي صفة اعتبرها هامة بالنسبة لشخص في موقع المسؤولية مثلك».  
وكما كان متوقفاً، تأثر الضابط ولبى دعوة روم ليشاركه زجاجة  
الشراب، بينما استقبل رجاله بارتياح حسن ضيافة القبيلة التي  
اعتبروها من عداد الأصدقاء. ولفترة طويلة ظلت مارييل قابعة في  
الظلام في انتظار رحيل الضابط ورجاله. وبمضي الوقت تحول  
انتظارها إلى قلق وكادت تبكي عندما سمعت الضابط وهو يودع  
الحاضرين ويقود رجاله بعيداً عن المعسكر. وقالت رداً على  
صوت حارسها عندما رأى روم يظهر لها من الظلام:  
«حمداً لله!»

«حاولت أن أتخلص منه قبل ذلك لكنه كان مصمماً على البقاء.  
انتظري!»

لكنها اتجهت نحوه وكادت تتعثر في خطاها فرفعها بين ذراعيه،  
وحملها الى داخل العربة ووضعها على السرير وخلع حذاءها وأخذ يدلك  
قدميها بمنشفة خشنة ليساعد على سريان الدم في عروقها. وكانت  
ترنح بشدة لدرجة أنه تركها لاعداد قهوة ساخنة بالسكر وسقاها إياها  
من بين أسنانها المصطكة. وانسابت حرارة القهوة كالنار المذابة في  
عروقها وأعدت الدفء إليها.

وحينما استأنف تدليك قدميها والمرور بأصابعه على آخر آثار قيود  
كاليا في قدميها سألته والنعاس يقلب عليها:

## ٧ - حب ام كراهية؟

أحياناً كان الجنود في عربات الجيش يسرعون بجوار القافلة. وفي أول الأمر كادت مارييل تموت خوفاً وهي تتصور نفسها وقد سحبها الجنود من العربة وأدخلوها السجن. لكن مخاوفها هدأت تدريجياً وهي تطمن نفسها بأن سيرجي إيفانوف لا يعرف شيئاً عن علاقتها بالفجر. كان روم معروفاً باختفائه المتكرر المعتاد من المجتمع، ومصادفة اختفائها من وارسو في الوقت نفسه مع اختفاء روم قد يحتاج الى بعض الوقت حتى يصل إلى فهم سيرجي الذي يتصف بالقسوة وليس بالذكاء. وتضايقت كعادتها دائماً عندما تفكر في ذلك الرجل الروسي وبدأت تراودها الشكوك والحيرة من جهة خالتها. رفض روم أن يتكلم عن الأحداث التي أدت إلى قرارها، ولكن كلما ذكر اسم الحالة لاح على جبينه عبوس ظاهر، ويان على فمه الغضب مما يدل على أنه هو الآخر كان قلقاً على صوفي التي لولا مجهوداتها لصالح ابنة اختها لأضطرت أن تشرح الكثير لذلك الروسي ذي العينين النفاذتين.

وبدا على روم كأنه يقرأ أفكارها. لذا أشار إليها أن تجلس بجانبه في المقعد الأمامي الذي يقود منه العربة. وبعد تردد أطاعته وهي تتساءل إذا كان سيصب عليها جام غضبه لخطأ ارتكبته، أم سيسلط عليها مزيداً من جاذبيته، التي تؤثر في أعصابها أكثر من كلماته الصارمة.

وأشار إلى شيء بعيد، وعندما تابعت إشارته بعينيهما رأت قصراً

«ماذا سيحدث للرجال الذين تم القبض عليهم؟»  
«سيوضعون في السجن.»

«هل سيقبلون هذا العقاب كشيء يستحقونه؟»  
ولم يعجبها ما بدا عليه من ألم وهو يقول:

«ولماذا يتقبلونه؟ أنهم لا يعتبرون أن سرقة الأشياء الضرورية جريمة. فمثلاً جمع الأخشاب من الغابة يجب أن يكون مباحاً للجميع، وترك المواشي لترعى في أرض الغير يجب ألا تعتبر مخالفة طالما تنمو الحشائش فيها بدون مجهود من المالك! إن الجشع هو الذي يحول الأخذ إلى سرقة. وإذا كان كل الناس أمناء يحبون غيرهم مثل الفجر لما أصبح لدينا خوف من المجاعة أو التلوث أو الحرب.»

ونظرت مارييل إليه وساءلت بينها وبين نفسها: «هل الحكمة في السكوت أم في الكلام؟» ثم استراحت عندما غابت النظرة الصارمة من عينيه وسمعته قائلاً:

«لا بأس. سيأتي اليوم الذي ستنتهي فيه مدة عقوبتهم وستقابل معهم ثانية. لكنهم لن يفصحوا للبوليس عن علاقتهم بمسكرنا. ولذلك تستطيعين أن تطمئني وتتعلمي بالأمن والسلام.»

وبادلتها ابتسامته المشجعة التي وجهها إليها، لكنها في قرارة نفسها لم تكن ترغب في الأمن. أما بالنسبة للسلام فقد تساءلت عما إذا كانت ستعرف ثانية المعنى الحقيقي لتلك الكلمة.

بعيداً وقال لها روم باختصار شارحاً ما رأته:

«هذا هو قصر براتيسلافا الذي يشرف على المدينة التي تحمل اسمه وسنذهب إليها الليلة».

ولم يفته ملاحظة البريق الذي بدا في عينيها، وعلق على ذلك قائلاً:

«بالرغم من أنك لا تجرؤين على مقابلة أهل المدينة أو التحدث إليهم إلا أنك ستشعرين على الأقل بأنك قريبة من المثقفين الذين تتوقين لصحبتهم».

وكانت مارييل قد نسيت محاولاتها اليائسة في إخفاء مشاعرها وراء تظاهرها باحتقار عشيرته. لكن الواضح أنها لم تفلح في ذلك، فقالت:

«إنني لم أقصد شيئاً يا روم».

غير أنه قرر الذهاب، فقال مقاطعاً محاولاتها الاعتذار:

«سنذهب بمفردنا، فإن براتيسلافا هي آخر مدينة نمر عليها قبل أن نعبث بالحدود وندخل النمسا. يجب أن نغتنم الفرصة لتعرّف الأخبار، قد تكون هناك أخبار عن صوفي».

إذا سيدخلان المدينة خلسة ويعرضان نفسيهما لأعين البوليس الساهرة لأنه لا يستطيع الصبر على جهله بأخبار صوفي! برزت لها كل النقائص التي نسيها والتي استنتجتها مارييل عن خالتها، وهي أنانيتها وغيبتها واستخفافها بالعلاقات الأسرية. والأكثر من ذلك كله صداقتها الخائنة لسيرجي إيفانوف، ودفعت مشاعرها الدم إلى وجنتيها وارتعدت يداها ومنعت نفسها من توجيه عبارات الاتهام التي أرادت بها أن ترفع الغشاوة عن عيني روم ليرى مساويها.

خالتها، فهي لا تستحقه بل يستحق من هي أفضل منها. لكنها لم تجرؤ على التصريح برأيها، فبالرغم من اضطرابها وغضبها فإنها شعرت بفريزتها أن من يسمعها تقول ذلك سيتهمها بالغيرة.

وكان قلبها يدق عندما اقتربت عربتها من المدينة في ساعة متأخرة من تلك الليلة. أما بقية أفراد القبيلة فكانوا يتجهون نحو الحدود، تاركين وراءهم إشارات وعلامات ليلتقطها روم بعد الانتهاء من مهمته في المدينة ويلحق بالقافلة في محطتها التالية. وكانت هناك نقطة تفتيش عند حدود المدينة، فعندما وصل بثقة وثبات إلى الحاجز الممدود عبرها، طلب الحارس الواقف عليها أن يرى أوراقها. فاستجاب روم وجلس في هدوء وهو يصفر بيناً أخذ الحارس الروسي يقلب صفحات البطاقة التي قدمها له روم. ولا بد أن مظهر مارييل الأضحت كان مقنعاً للحارس، فقد كان لونها المسمر من الشمس وتورتها الزاهية وبلوزتها المفتوحة تضفي عليها شكل الفجريات الأصلية. أما شعرها الأشقر فكانت تغطيه تماماً بعصابة سوداء، كما خبأت بأهدابها المسبلة عينيها الرماديتين اللتين لا يمكن أن تظهر فيهما جراحة الفجر أما روم المرتدي ملابس رجال الفجر كانت أسنانه البيضاء تلمع في ابتسامة كلها ثقة وجرأة وهو يقول للحارس:

«لا بد يا صديقي أنك رأيت جواز سفر دولياً قبل الآن»

وقبل أن ينتظر جواباً استطرد يقول وهو يتعمد شغل الرجل بكثرة

كلامه:

«أنا وزوجتي من الفجر ويتيح لنا جواز السفر هذا، المرور في جميع بلاد أوروبا. ولا شك أن كل دولة لها نظامها الخاص. فقي فرنسا مثلاً يطالبوننا بتسجيل أسنانتنا في قسم البوليس كل أربع وعشرين

ساعة، ومع ذلك ستجد هذه الأوراق سليمة. أما إذا كنت تشك في شيء فنحن على استعداد للانتظار حتى ترجع في الأمر إلى رؤسائك». وشعرت مارييل أن الدهشة بدت على الحارس لفترة وجيزة ثم قال:

«عجراً لا أفهم لماذا يسمحون لأمثالكما بالتجول في أوروبا، هيا مرا وحذار من تفوهكما بألفاظ بذينة».

وأشار بيده ليرفع الحارس الحاجز عن طريقهما، واندفع روم في طريقه في زوبعة من التراب الذي أثارته العربة والحصان.

كانت شوارع المدينة هادئة لذا أحدثت عربتهما وهي تسير عليها دويًا كبيراً. وحتى شاطئ النهر بأوناشه الساكنة المصطفة عليه مما يدل على أهمية هذا المرفأ الذي يصدر عنه يومياً أطنان عديدة من القمح والذرة والشمندر وكلها تنمو في تربة خصبة عند وادي نهر الدانوب. وخاب ظن مارييل في الدانوب نفسه فلم يكن أزرق بل كان رمادياً بلون التراب، إلا أن الشوارع التي اخترقاها كانت جذابة. وعندما رأى روم غبطة مارييل تمهل قليلاً ليتيح لها فرصة مشاهدة كنيسة من طراز الباروك يرجع تاريخها إلى القرن الثامن عشر وتشرف على حديقة تتوسطها نافورة من الحديد.

وكان المنزل الذي سيقضيان فيه ليلتهما يقع في الحي الفقير المزدهم من المدينة. الحوانيت مصطفة على ثلاثة جوانب من ميدان فهمت مارييل أنه يتحول في النهار الى سوق. وفوق الحوانيت تقع مساكن أصحابها وأسرههم. وقاد روم العربة في شارع صغير ضيق يؤدي إلى ساحة واقعة خلف الحوانيت. ومن الساحة يصعد الدرج إلى المنازل. ورأيا رجلاً طويلاً يسرع نحوهما من أحد المنازل ويحييها

بلغة الفجر التي رد عليه روم بمثلها. ونظر الرجل الذي قدمه روم باسم جان بيلسكي إلى مارييل وقال:

«إذا لم تكذب الا ساعات! فعلاً تزوج صديقي القديم!»

وابتسم الرجل عندما أرخت مارييل أهدابها من الخجل «لقد انتظرنا طويلاً هذه البشري يا روم، إلا أن حسن اختيارك كان يستحق الانتظار. هيا تشرب نخب الزواج».

وتقدمها إلى مسكنه الذي بدا لها لأول وهلة كأنه يعج بالأطفال، ولكن بكلمة منه تركوا لعينهم، وبعد أن سمح لهم بتحية الزائرين انصرفوا يهدوء إلى فراشهم. وعندما صبت أنا، زوجة جان الجميلة ذات العينين الحزيتين، الشراب في الكؤوس دس جان عملة ذهبية في يد روم وشرب نخبه قائلاً:

«هذا مبلغ بسيط أقدمه لك، لكنني أدعو الله أن يمنحكما الكثير» وأضافت الزوجة إلى كلماته عبارة بلغة الفجر المتعشرة كما لو كانت تتكلم لغة غريبة عنها. وسرعان ما ذاب خجل مارييل بفعل الشراب والجو العائلي وترحيب الزوجين لها، وانساب الحديث العذب بينهم ليضيف الى لذة الطعام بأصنافه الشهية جواً حمياً.

وكانت لمناظر المدينة فعل السحر في مارييل، جذبها منظر الصنابير، والمياه التي تجري في المواسير، وصوت الصحون وهي ترتطم بحافة الحوض، وقهمت أنا مشاعرها الفطرية التي جعلتها تعرض استعدادها لمساعدتها في غسل الصحون.

«طبعاً أرحب بمساعدتك. فلنترك الرجلين يستعيدان ذكرياتهما بينما نتمتع نحن بالغسيل والكلام ما شئنا».

وأغلقت أنا باب المطبخ الصغير حتى لا يفسد صوت غسيل

الصحون حديث الرجلين وحتى لا يسمعها أحد.

وكانت نبرة صوت أنا يائسة عندما سألت مارييل أثناء الحديث قائلة:

«أرجو أن تفهمي تلهفي، فإن غبظتك الواضحة بما حولك يشجعني على سؤالك، هل أنت سعيدة لأنك أصبحت غجرية رخالة، عليها أن تقضي بقية حياتها في الترحال المستمر عبر أوروبا في صحبة أناس، بالرغم من طبيبتهم، لا يحترمون الأغراب ولا يتعاطفون معهم؟»

وعندما أبدت مارييل دهشتها لتدخلها في شؤونها الخاصة قالت: «ما كنت أسأل لو لم أكن أنا أيضاً أجنبية، حاولت في أول زواجنا أن أكيف نفسي لحياة أهل جان لكنني فشلت. فقد كرهتها كلها بشدة، وحتى بالرغم من حبي الشديد لجان، فعندما اكتشفت أنني حامل في طفلنا الأول تركته للعودة إلى والدي، هنا حيث نشأت وسعدت بحياتي، حتى أقنعني جان بأن مكان إقامتنا ليس مهماً طالما نحن معاً.»

ووضعت الصحن الذي ظلت تمسحه في غضبها حتى لمع، وحاولت أن تغالب الدموع وهي تقول:

«أكره نفسي أحياناً لما فعلته نه. تبعني إلى هنا لكنه ظل معي بجسده فقط، أما روحه فكانت تحوم في أوروبا مع قبيلته. هل لاحظت السعادة التي لاحت على وجهه عندما رحب بروم؟ فهو عادة ليس بالانشراح الذي غمره الليلة. ماذا ستفعلين يا مارييل؟ هل حبك لروم يفوق حبي لجان؟ وهل ستتنازلين طواعية عن أسلوب حياتك وعقائدك وسعادتك إذا كان في ذلك أملك الوحيد في البقاء بجانبه؟»

وبسرعة جفت مارييل يديها ومدتها لتهدئة الفتاة المضطربة التي أثارها أسئلتها. غير أن مارييل لم تحاول الرد على هذه الأسئلة لأنها شعرت أن أنا تدرك أجوبتها. ولكن عندما تكلمت لتهديء من روعها ظهرت الجدية في عينيها الرماديتين وهي تدرك لفرط دهشتها أنها تواجه الحقيقة التي حاولت أن تتحاشاها حتى الآن. كانت توفن بكل خلجة من نفسها، وعن إيمان راسخ، بأنها إذا وضعت في نفس الموقف لتنازلت عن كل شيء وتبعت روم إلى آخر العالم. وكان أثر الصدمة ما زال بادياً على وجهها الشاحب عندما انضمت إلى مجلس الرجلين. وحين دخلت مارييل الغرفة لاحظ روم على وجهها علامات القلق. وفي الحال وقف وقطع جبل حديث صديقه بقوله:

«إن زوجتي متعبة، لذا أرجو أن تسمحنا لنا بالاعتكاف في غرفتنا، وفي الصباح سأكون قد تذكرت الكثير من أبناء أقاربك وأصدقائك.»

فدق جان على جبينه وقال:

«كم أنا عديم التفكير! إنك تعرف مدى لفتني على شؤون أسرتي وقبيلتي. كان يجب عليك يا روم أن تنبهني إلى واجبي كمضيف لكما.»

والتفت إلى مارييل واستطرد بقول:

«أرجو المَعذرة يا عزيزتي فإنك تبدين فعلاً متعبة. إن غرفة النوم التي نخصصها لكما صغيرة لكنها مريحة.»

وكانت الغرفة فعلاً صغيرة جعلت مارييل تصيح مندحشة وهي تفتح الباب بصعوبة بسبب السرير الكبير الذي يملأ الغرفة كلها تقريباً ولاحت ابتسامة على وجه روم عندما رأى الفرحة بادية على وجهه

مارييل وهي تنظر إليه باستغراب. وسرعان ما حولت نظرها عن وجهه وتسلمت السرير ذا المراتب المثة المحشوة بالريش بكل الثبات الذي تستطيع السيطرة عليه. وعندما أغلق روم الباب وانفجر ضاحكاً همست قائلة:

«أخفض صوتك. سنقلق الأطفال في نومهم».

وحاول أن يسيطر على ضحكه قائلاً:

«ليتك ترين تعبير وجهك. فشكلك مثل العانس الغاضبة التي تواجه، لأول مرة في حياتها، فكرة السباح لرجل بمقاسمتها فراشها. إن مساحة العربة أقل من مساحة هذه الغرفة، إذاً لماذا هذا الحجل والتدلل فجأة؟» وكان يعرف تماماً أن سريرها في العربة يختلف تماماً عن السرير الوثير الذي سيقتسمه، والذي مهها حاول فيه النائم أن يظلا بعيدين عن بعضهما، فان ليونته سرعان ما جعلها يتدحرجان ويستقران معاً في وسطه.

واستاءت لمزاحه إلا أن ردها جاء خالياً من مظاهر الهيبة والكبرياء. وحاولت أن تظل جالسة عندما ألقى بنفسه متمدداً على السرير. لكنها هبت بغضب من جلستها وجئت على ركبتيها وحملت فيه قائلة:

«يجب أن تبحث لنفسك عن مكان آخر تنام فيه فأنت لا تتوي طبعاً أن تنام هنا»

«ماذا؟ وأترك أصدقائي يظنون أن هناك خلافاً بيننا؟»  
وابتسم بدهاء وقال مؤنباً إياها:

«كلا يا حبيبتي، فهما تضايقتا من قربنا من بعضنا يجب علينا أن نتحملة بروج طيبة فلا أحب أن نبسو غير راضيين عن ضيافة أصدقائنا».

وكان يرقبها وعيناه نصف مغمضتين وفمه جاد. ومع ذلك شعرت أنه يتلذذ من إغاضتها ويحاول إخفاء ذلك. وانتابها الخوف عندما أطفأ النور بحركة سريعة وجذبها إلى جانبه. وأخذت يدها تداعبها محاولاً تهدئتها. لكن عضلاتها ظلت متوترة فهمس قائلاً:

«من الذي سيعلم أننا استمتعنا ولو ليلة واحدة بحقنا في الظروف التي فرضت علينا؟»

وسرعان ما أسكت ردها بحركة منه سلبت مارييل أي تفكير في المقاومة. ولم تنطق بكلمة عندما ضمها إليه بحنان، وجعلها تشعر بأنها في سجن جميل مبطن بالريش الناعم نعومة خلجات قلبها.

ثم نظر إليها متعجباً من هدونها، وحاول أن يفهم غموض رد فعلها. ولوهلة قصيرة قاومت مارييل خجلها فلم تكن قد تخلصت بعد من التحفظ الذي ورثته عن أبيها الانكليزي، لكنها بتنهيدة مدت يدها وجذبت رأسه إليها، وفجأة شعرت من أنفاسه مدى الدهشة التي انتابته. إلا أنها ابتسمت في سرها. وبعد فترة قصيرة من السكون ابتعد عنها وبحركة رشيقة نهض من السرير، ووقف بجواره ينظر إليها في الظلام ويقول:

«أسف يا مارييل، جرفني المزاج وتغلب عليّ ولن يحدث ذلك مرة أخرى».

وكان هذا الاعتذار الجاف مثل السكين الذي يطعن الحب الوليد، الذي شعرت به نحوه لكنه لم يفلح في إخماد نار الندم التي اشتعلت في ثوان، ثم خمدت تاركة حواسها هامة. ولحسن حظها أنها لم تضيء النور، مجنبة نفسها آلام رؤية وقع الافصاح عن مشاعرها على وجه روم، خاصة وأنها كانت تسخر من مشاعره من قبل. وتعجبت كيف أن السخرية تؤلم أكثر من الصد. وقالت لنفسها إن كبرياءها هي التي

وارتعدت من الصوت المشبوب بالحجل، ثم ضغطت على مشاعرها لتضحك وتقول:

«أنا التي يجب أن تعتذر يا روم، فإن الاغراء بمجاراتك في تمثيلتك كان أقوى مني، مرة قارنت بيني وبين فتيات قبيلتك، ولم تكن المقارنة في صالحتي، فلا تلومني لأنني حاولت أن أدافع عن سمعتي عندما سنحت لي الفرصة».

وفي فترة السكون التي تلت كلامها شعرت بحدة الغضب التي لا يمكن أن يضاهاها غير لظمة السرط على الفم. ولأول مرة في حياتها احتمت وراء درعها الحقيقي وهو جنسها، إذ لا يستطيع أن يؤذيها جسدياً إلا أنه لن ينسى أبداً كلامها، وسوف يظل يفكر كما فكر في آثار الجروح التي أحدثتها قسوة كاليا عليها، حتى أنه الآن وبعد أن التأم آثار الجروح يستطيع أن يتلمس مكانها.

وشعرت ببعض الراحة لأنها على الأقل حفظت كرامتها، حتى ولو كان ثمن ذلك احتقاراً ملموساً امتد عبر الهوة التي تفصل بينهما. لن تكون هناك فترات أخرى من الحنان الذي يصل إلى حد التعذيب. لن تكون هناك نظرات سريعة متبادلة تنتزع قلبها من بين ضلوعها، فمخالب الأسد تنهش حتى ولو كانت مدهونة بالعسل. أما الجروح التي تحدث من الغضب فيكون تلافيتها أسهل من الاهانات لأنها تحجب مستترة بالرقعة. وتحرك روم نحو الباب وحبت مارييل أنفاسها متوقعة منه لسعة وداع، لكنه اختفى بدون كلمة تاركاً لها الفرصة لتبكي بمرارة وحدها.

## ٨ - رصاص ودما

تحت بيت جان مقهى استعمله مصدراً لقوته هو وزوجته، وكانت أنا تعد فيه الطعام ويقوم جان على خدمة الزبائن. وفي اليوم التالي عندما اقترح جان لاصطحاب روم لمعرفة الأخبار في المدينة، تدخلت أنا وذكرته بأن أصغر اولادها يحتاج لرعاية أثناء عملها. واحترار جان ونظر إلى الوجه الصغير الملوث بالمرعى وقال: «نسيت أمر بيشا الصغيرة».

واقترح روم قائلاً:

«سترعى مارييل الطفلة، فمن الخطر عليها أن تصحبنى في الشوارع نهاراً».

وعندما توجهت الأنظار نحو مارييل، توردت وجنتاها لكنها هزت رأسها موافقة على الفكرة، فهي ترحب بأي اقتراح يبعتها من روم. ودلت نظرتة على أنه قرأ أفكارها فألقى عليها تحية مقتضية عبر الغرفة وخرج مع صديقه.

وارتاحت مارييل عندما تركها روم وحيدة مع بيشا الصغيرة، بينما اشغلت أنا في خدمة زبائن المقهى الذين يطلبون القهوة والكعك حتى يحضر رواد الغذاء من المكاتب والخوانيت المجاورة ويشغلوا جميع المقاعد ويملاؤا الغرفة بحديثهم المرح. وتاقت مارييل إلى الانضمام إليهم، والاستماع لحديث الطلبة أو لحوار رجال الأعمال الجالسين حول المائدة وكأنهم يتكلمون عن حدث هام، لكنها أخذت تحوم في الخارج وهي لا تجرؤ على الظهور أمام أحد. وازدادت

الطفلة عصبية كلما طال بعدها عن أمها، فحملتها مارييل إلى  
الفناء لتفرجها على اللعب. ووجدت كرة انشغلنا بها لمدة نصف ساعة  
وكانت أنا تطل برأسها من النافذة من أن لآخر لتشارك في مرح  
الطفلة وتطمئنتها بوجودها. وحدث أن شتت الأم انتباه مارييل فلم  
تلاحظ أن الطفلة أخذت تلعب بالكرة وهي تتبعها نحو المقهى الملىء  
بالرواد.

وكانت كل الأبواب مفتوحة على الفناء. فعندما لاحظت غياب  
الطفلة أخذت تبحث عنها، لمحتها وهي تقف على عتبة باب المقهى،  
فنادتها قائلة:

«ارجعي يا عزيزتي بيشا».

لكن الطفلة ترددت ويابتسامة ماكرة دفعت بالكرة وأدخلتها بين  
رواد المقهى، فضحكت مارييل وأسرعت نحوها وهي تقول:  
«أيتها الشيطانة»

وبدون تفكير حملت الطفلة وأسرعت بالتقاط الكرة، إلا أنها تنهت  
إلى غلظتها بعد فوات الأوان، وبعد أن تحولت جميع الأنظار إلى وجهها  
المصطبغ بحمرة الخجل، وإلى الطفلة وهي تحاول التخلص من  
ذراعيها. وأخذت تتراجع وهي تحمل الطفلة بينما تركت فكرة استعادة  
الكرة. وقام رجل من مقعده المجاور للكرة فالتقطها واقترب من  
مارييل والطفلة. وعندما سقطت أشعة الشمس على أزرار زيه  
العسكري وعلى جلد حذائه الطويل، شعرت بالخوف والاضطراب فقد  
تعرفت على الزي العسكري الذي رأته لأول مرة على سيرجي  
إيفانوف. وقدم الكرة قائلاً وهو يمسك حذاه معاً دون أن يتنظر إلى  
وجهها:

«كرتك أيتها الرقيقة».

تقمت بكلمات السكر وفرت هاربة بمجرد أن أخذتها، واستدار  
ليجلس عندما جذبت بيشا من فرحتها رباط رأس مارييل تاركة  
شعرها الأشقر يتهدل على كتفيها. ورفع الضابط رأسه ودقق فيها  
النظر، ولكن قبل أن يستجوبها رفعت مارييل أطراف ثوبها وهربت  
إلى المنزل ووقفت ترتعد وراة الباب متوقعة أن تسمع وقع أقدام  
تتبعها...

وعندما عاد روم و جان أكلت معها واستمعت إلى حديثها  
وفكرت هل تخبرها بالحادثة؟ وبأنها عصت تعليمات روم حين أمرها  
بالأ تظهر للناس. ولم تشجعها الجديدة البادية على وجهه على الاعتراف.  
وبعد فترة من الصراع قررت أن تلتزم الصمت. وجاء صوت جان  
مبدأً لتفكيرها:

«لدينا أخبار سارة يا مارييل. ذهبنا إلى مكتب البريد لتسلم بريد  
العجبر. ووجدنا عدداً كبيراً من الخطابات باسم روم. وبالنظر إلى خاتم  
البريد عرفنا أن معظمه مرت عليه شهر وهو في المكتب».

وتوقفت برهة متوقفاً أن يكمل روم القصة، ولكن عندما وجد  
مستمراً في الأكل لم يأبه بل تابع كلامه قائلاً:

«ثم ذهبنا إلى بعض مراكز الاتصال وقيل لنا إن شخصاً منا يحاول  
الاتصال بروم تليفونياً لمدة أسابيع، لذا اتفقنا أن يتكلم عصر اليوم  
ونحن متأكدون أنها أخبار صوفي».

وتنهدت مارييل وقالت:

«هذه فعلاً أخبار سارة ولا بد أنك تتوق يا روم لتلقي هذه المكالمات  
وأرخت أهدانها وانتظرت رده وتضايقت من سكوته. وحتى نحن

لاحظ أنه لم يوجه إليها إلا عبارات مقتضبة منذ الليلة السابقة. كما لاحظت هي أن الجو بينها أصبح متوتراً بحيث تمت لو كلمها ولو بألفاظ اللوم، وانتفضت عندما سمعت إبعاد مقعده عن المائدة لكنه تجاهل سؤالها وأشار للساعة وقال لجان:

«ستأتي المكالمة الساعة الواحدة والنصف. والساعة الآن الواحدة، يجب أن أذهب فشكراً يا صديقي على حسن ضيافتك. وللأسف يجب أن حل بمجرد مجيء المكالمة وأرجو ألا تطول مدة فراقنا. وأن تنقع أنا لانضمام إلى قبائلنا ولو لفترة قصيرة حتى تستطيع أن تجد صداقتك وتسعد أقاربك بحضورك».

وأخفى جان اشتياقه إلى هذه الزيارة فقال:

«تعلم يا صديقي أنني اعتدت على حياة المنازل فلا أستطيع فكرة كسر طبقة الثلج من المياه قبل أن أغتسل بها، كما لا تتحمل عظامي التي اعتادت الفراش الوثير النوم على الأرض بعد نومي على المراتب المحشوة بالريش. واستمر روم في محاولاته مع اهتمامه برد صديقه: «هل أفهم أنك راض عن حياتك؟»

وحبت مارييل أنفاسها لتستمع للرد الذي تتوق أنا إلى ساعه لكنه قال:

«لا الفقر ولا الثراء يتركان الانسان سعيداً. أما تحت سقف هذا البيت فتوجد السعادة التي أصبحت من نصيبي».

وكانت إجابته حلاً وسطاً لموقفه، إلا أن روم صافحه وتبادلا نظرة تحمل الكثير في طياتها وافتراقاً دون تعليق.

وظل جان في المقهى فيما عاد روم إلى مكان الاجتماع انتظاراً لمكالمة صوفي. وقررت أنا أن تستريح في المنزل مع مارييل.

وكانتا تتبادلان الحديث وتتناولان القهوة عندما سمعتا أصواتاً آتية من المقهى. فانتفضت أنا واقفة ونظرت لمارييل بينما سمعتا صوت جان وكأنه ينذرهما:

«نعم أيها الرفيق، كان لدينا غريبان حضرا ليلة أمس يستجديان طعاماً فعمطت عليهما زوجتي وقدمت لهما وجبة وسريراً مقابل قيام الزوجة برعاية طفلتنا بينما عمل الزوج في المطبخ، وقد رحلا من ساعة وقالوا إنهما سيعودان إلى قبيلتهما وأجهل وجهتهما».

وعندما وجه إليه مستجوبوه سؤالاً رد جان بصوت أكثر ارتفاعاً: «سيدة انكليزية؟ لا بد أنك مخطفة. هل رأيتها هنا في المقهى؟ ألم تكن سمرًا؟»

فارتاعت مارييل ورفعت يدها تلمس بها العصاة التي تغطي شعرها الأشقر. كم هي غيبية لاختفاء مقابلتها للضابط الروسي! فلو ذكرت الحادث لأستعد جان برودد مقنعة؟ ماذا لو دخل المقهى وأثبت كذب جان وطرأت الفكرة نفسها لأننا فأمسكت مارييل وناشدتها بإيجاد حل للمأزق.

حيثذ، وكان الله استجاب لدعاتها، سمعتا روم يقود العربة داخل الفناء فلحقت به مارييل وقالت وهي تلهث: «جنود... بللمقهى»

وبسرعة انتزعها من الأرض وأجلسها بجانبه وضرب الحصان بالسوط وانطلقا نحو حدود المدينة، ولم يتسع الوقت لتوديع أنا وهي واقفة ترقب ما يحدث من وراء الستائر. وعندما التفتت مارييل إلى الورا رأَت جنديين يظهران في الفناء، وسمعت صيحة تلتها صفارة عندما رأى الجنديان العربة وهي تسرع مبتعدة عن المنزل، لكنها لم

تشعر بالخوف لأنها قد ابتعدا بمسافة كافية ليتفاديا إيقاع الشك بأصدقائها.

وكان الكلام مستحيلاً بينها بسبب أصوات حوافر الحصان وسرعة العجلات، لذا تشبثت بالعربة متحملة ميلها ومطبات الطريق، حتى أن أسنانها ضغطت على لسانها فأدمته.

وعندما جاءت الطلقة الأولى كانا قريبين من الأشجار. فشعرت بخوف سترها في مكانها بدون حركة، حتى مد روم ذراعه وجذبها ضاحكاً:

«اثبتي ولا تخافي، كدنا نصل إلى بر الأمان».

وعندما مرت رصاصة أخرى بجوار رأسه جزعت مارييل. إلا أن روم قلد الحصان بأقصى سرعة محاولاً الدخول إلى الأشجار ليحتمي فيها. وتنفتت مارييل الصعداء عندما دخلا بين الأشجار وأصبحا في أمان. وظل يتوغل في الغابة إلا أن كثافة الأعشاب جعلت التقدم مستحيلاً. لذا قفز من العربة وأشار إليها أن تتبعه، ثم ربت على الحصان وتركه يعود من حيث أتى.

أمسك روم بذراع مارييل وأخذا في العدو، وسمعا أصداً أصوات بين الأشجار عرفا منها أن هناك من يتبعهما عن قرب، ولمدة ساعات حاولا اختراق الأشجار الكثيفة فكانا يتعثران ويتعرضان لوخز الأشواك التي تشبه الأفاعي في لدغها. وأخيراً شعرا أن المطاردين قد ابتعدوا عنها. وكانت دراية روم بالغابة وحدة نظره وحكمته خير عون لها. وفجأة توقف روم عن جريه ونصح مارييل بالراحة، فأطاعته وهي مطمئنة إلى أنها في أمان.

ثم ارتقت على الأرض المغطاة بالحشائش وراحت تدلك وجنتيها

بالأوراق الناعمة، شعرت بدقات قلبها وهو يلامس الأرض، وعندما هدأ الصوت واسترخت عضلاتها قالت:

«هذه غلظتي يا روم، شعرت وأنا في المقهى هذا الصباح أنني أثرت شك أحد الضباط لكنه ترك المكان دون أن يقول شيئاً ولم أظن أن الحادث بالأهمية التي تجعلني أذكرها لأحد».

فصوب نظراته إلى وجهها وقال:

«لم تظني أن الحادث هام؟»

وجاءت كلياته بطينة معبرة عن غضبه ودهشته، فارتبكت وتوسلت إليه بالأ يقسو عليها. وتوقعت أن يشور عليها، لكنه من فرط تعبه تنهد وترك جسده يستريح قائلاً:

«بعد بضعة أميال سنكون في أمان، هذه الغابة تقع عبر الحدود، دخلناها في تشيكوسلوفاكيا وسنتركها في النمسا».

ثم استدار ليووجهها واستطرد يقول:

«بجرد وصولنا إلى فينا سأعيدك إلى خالتك الموجودة هناك منذ أسابيع بانتظار أخبارك».

فرددت كلماته بدهشة وقالت:

«خالتي في فينا؟ لكن... كيف؟... ولماذا؟»

«كيف... بالطائرة... ولماذا... لأنه بمجرد معرفة سيرجي إيفانوف بتحركاتها لم يعد لها أمان في وارسو».

«أتعني أنها اضطرت إلى ترك بيتها وعملها وأصدقائها بسبب تدبيرها لقراري؟»

قال:

«لقد ظلمت خالتك كما ظلمها الكثيرون».

وأثارت الدهشة التي بدت عليها غضبه وحفرته على الاستطرد في كلامه:

«إنها أكبر مني بقليل، ولكنها لم تكن قد تعدت مرحلة الطفولة، بعد عندما اندمجت في منظمة، هيأت الحرب إلى الحرية أمام آلاف اللاجئين. وجاءتها فرصة الحرب مراراً لكنها فضلت البقاء حيث اعتقدت أن الناس في حاجة إليها، أي في وارسو، وخالتك تناضح العنف. واستطاعت بالصدقة القائمة بينها وبين سيرجي إيفانوف وأمثاله، ادخال تعديلات خففت العبء عن كاهل الذين تتعاطف معهم، وهم الطبقة العاملة الذين أصبحت حياتهم جرداء، لا تختلف عن حياة الحيوانات».

فخجلت وسألته:

«هل فعلت خالتي هذا؟»

فرد عليها وقد أثارت غضبه:

«وأكثر من ذلك. صوفي ساعدت على قيام ثورة بيضاء، جعلت بعض الذين كانوا يفتكرون في الحرب يعدلون عنه، وييقنون لمعاونتها في النضال من أجل إبقاء العادات القديمة استعداداً ليوم التحرر الحقيقي».

واتضح لها كل شيء. فقالت:

«وأنت الذي عاونتها! أنت وقبيلتك كنتم طريق الحرب الذي ذكرته. الآن فهمت سبب ولاء عشيرتك لخالتي، كما فهمت نتيجة عنادي! لقد أفسدت كل ما عملته من أجل تحقيق رسالتها».

وودت مارييل لو دفنت نفسها من الخجل. ولم تغلح نظرتة القاسية في التخفيف عنها، استمر يمعن في إيلاها غير أبه بعينها

المعذبين.

«أليست صدفة غريبة أن سبيل الهروب الذي وجد لفرار والديك أساساً قد حطته ابنتها؟»

ولم يرحمها روم ولم يكتبف بتعذيبها، فشعرت أن لا شيء يحو الضرر الذي ألحقته بخالتها. وحتى اعتذارها وما يحمله من ندم لن يكون غير الأمعان في آلامها.

ولم يلحظ أنه هب واقفاً ورفع رأسه وكل حواسه منتبهة إلى رائحة الدخان وأصوات الفرقة في العشب والسحب الزرقاء التي التفت حولها وقال:

«حريق! إنهم مصممون على شيتنا أحياء. وجذبها وأوقفها وهو يبعدها عن الخطر المحيط بها وأخذها بجريان عبر الأشجار مبتعدين عن السنة اللهب».

وخرجت أفواج من الحيوانات والطيور الخائفة من وسط الحشائش وهي تصرخ وتطير بتناقل، مثلها تطير عندما تسمع الرعد الذي يسبق العاصفة. وكانت النيران تنتشر بسرعة، وأخذت تسبق خطاها في أماكن لم يتوقعها. وصاح روم وهو يجذبها عبر الغابة التي تحولت بسرعة إلى فغ محكم:

«يجب أن نتبع الحيوانات فهي متجهة نحو المياه، يوجد نهر هنا ونرجو الله أن نصل إليه في الوقت المناسب».

وكانت مارييل متعبة تحاول ملاحقة خطواته السريعة. وهي تسمع النار تقترب منها وتلتهم كل شيء في طريقها وكانت الحرارة عنيفة، والهواء خانقاً يحمل رائحة الاحتراق. وفجأة تعثرت مارييل ووقعت على الأرض، لكن سرعان ما جذبها روم ثانية لتقف على

«كان قرارنا حكياً، فلن يصدقوا أننا مازلنا أحياء ولا بد أنهم يحتفلون الآن بنجاح عملياتهم».

وبما أكد خطورة موقفها وقوع جذع شجرة بالقرب منها فجذبها روم وقال:

«تعالى، لقد تمادينا في التغلؤل بنجاحنا، وأن الآن وقت السباحة»  
وأمسكها وقادها فوق الصخور حتى وصلا إلى بركة في أعماق جزء بالنهر. وعندما غاصا فيها، تصاعدت الفقائيع ووصلت المياه إلى رقبتيهما. وفجأة اصطبغت المياه بالاحمرار حينما اشتعلت النيران في الصف الأول من الأشجار على الضفة المقابلة، واندلع اللهب بلونه الأصفر والبرتقالي.

أخذاً يرقبان النار والماء حولها كالدّم المراق ورأيا الطبيعة تلفها بألسنة النار في ثوان: فبالسرعة التي يوحد بها عود الثقاب انهارت عمالقة الغابة وأصبحت عصياً قصيرة من الرماد. أما وهج الحريق فأخذ يقترب منها ويحاول التهامها. وبخوف شديد راقبا اللهب عن بعد وهو يلتهم الأشجار على الشاطئ الآخر ودخل الدخان في أعينها وحلقتيها واضطرا أن يغوصا في الماء حتى وصل فمها إلى سطحها. وعندما هدأت حدة الحريق كانت مارييل قد استنفدت قواها، ولم يبق لديها إلا قدر بسيط من قوة الإرادة لتطيع بها روم عندما أمرها قائلاً:

«هيا بنا. فلم تصل النار للضفة الأخرى بعد».

ورغم معاونته لها، سحبت قدميها بصعوبة، فملا بسها المتبلّة كانت تعوق حركتها، وعبرت إلى الضفة النهر الأخرى. وعندما وصلا إلى هناك ارتقت على الأرض طلباً للراحة. لكن روم لم يسمح لها بذلك، فركع

قدميها وأخذ ينهرها ويدفعها للأمام فهمت قائلة:

«إنني لا أستطيع يا روم... استمر في طريقك بدوني».

واحتجت عندما رفعها من الأرض بين ذراعيه واستعطفته قائلة:  
«كلا...»

وانسابت دموعها على خديها وحاولت أن ترغم روم على تركها وناشدته أن ينقذ نفسه دون تحمل عبئها. إلا أن الدخان غمر رنتها فلم يخرج من حلقها الجفاف وشفتيها المشققتين عندما داهمها ظلام الاغما.  
وأفاقت على الماء الذي كان روم ينثره على وجهها، وعلى صوته القلق وهو ينساب إلى هدوء غيبوبتها كان ملحاً وقلقاً حتى أنها فتحت عينيهما رغم إرادتها لتتأكد من سبب غياب غضبه المعتاد، ورأت في الوجه المنحني عليها علامات القلق، وارتاحت عيناه عندما نادى اسمه، وهمست قائلة:

«هل نجونا؟ وهل خمدت النيران؟»

«لا تقلقي يا عزيزتي عثرنا على النهر وأرجو أن تنطفئ النار عندما نصل إلى الشاطئ». لكننا لا نجرؤ على العبور خوفاً من أن يحمل الهواء شرراً إلى مسافة تسمح بانتشار النار، يجب العثور على مكان في النهر يغطيها بالماء وننتظر فيه حتى نتأكد من سلامتنا قبل المجازفة بغوض الجزء الأخير من رحلتنا».

وفكرت: هل يوجد شيء آخر مسؤول عن المشاعر المتضاربة التي تتنازع روم وتبدو على فمه الخالي من الغضب؟ لذا بدت عليها الدهشة وهي تنظر إليه:

«وماذا عن الجنود؟ هل سيعطيهم تأخرنا فرصة اللحاق بنا؟»

عاد العيوس إلى ملامحه وهز رأسه وقال:

بجوارها وشجعها على الاستمرار في السير واضعاً أصبعه تحت ذقتها وهو يقول:

«كنت شجاعة يا عزيزتي، لكنني مضطر أن أطلب منك بذل جهد أكبر، فعلى بعد أميال قليلة تقع حدود النمسا والحراسة الروسية تنشط على الحدود، لكنني متأكد أننا سنتفادها إذا بقينا في الغابة. إلا أنه من الخطر أن نتأخر هنا، أرجوك محاولة المشي، لفترة قصيرة».

كان صوته من النوع الأمر فرغم وجود رغبة تدفعه إلى الوصول إليها، ورغبة يتمنى بها التخلص منها لأنها سببت له المشاكل، إلا أن ابتسامته شلت إرادتها ورفعتها إلى قدميها، واعترتها نوبة من المشاعر الطاغية عندما دس يدها في يده. فبمعجزة اختفت صرامته، وشعرت بالندم على الاساءة إليه، وحمدت الله أن النار قد طهرت الحقد والكراهية في نفسه.

وأخذاً يمسيان بين الحشائش الطويلة التي تخفي في طياتها كتيبة كاملة. وعشرا على ممر دكته الأقدام بحيث فتحت طريقاً في الاتجاه الذي يريدانه، لكنهما لم يجرؤا على المشي فيه خوفاً من مقابلة دورية الاستكشاف عند أحد المنحنيات. وتبعته وهي تضع قدمها في موقع قدمه وتتعثر على الجذور المخبأة في الأرض خانقة من أصوات الحيوانات وحركاتها المفاجئة، انها تجمدت في مكانها عندما وصلت إلى الأعشاب التي تصل إلى كتفيها، وأخذت تنصت لصوت تكسر جذوع الأشجار، وزقزقة بعض الطيور وهي عادة تنذر بالخطر.

ولابد أنها قطعاً أميالا كثيرة عندما طلب روم منها التوقف لاطمئنانه للمكان الذي كانا فيه. وكان الليل قد بدأ يرخي سدوله ويضفي على الأشجار منظراً رهيباً. ارتعدت مارييل وهي تتصور

أن أعينا خفية تنظر إليها، ثم اقتربت من روم الذي كان ينصت لصوت أمة حركة حولها. ولما اطمأن لعدم وجود شيء جلس على الأرض ورمت على مكان بجواره لتجلس عليه وقال:

«اجلسي هنا واستريحيني فإن أسلاك الحدود على بعد ياردات قليلة من هنا، ولكن بما أنه مكشوف من الناحيتين بأرض فضاء فيجب أن نتنظر حتى حلول الليل قبل أن نجازف بالعبور».

وقال لها بهدوء رداً على دهشتها:

«الروس يفتشون هذه المنطقة ليل نهار. ولا بد من مجازفتنا بالعبور، فهذه هي الطريقة الوحيدة أمامنا».

وقبالة أخذت أسناتها تصطك، فجذبها للأرض وأحاط كتفيها بذراعه وأخذ يطمئننها. وفي أول الأمر لم تع كلماته، إلا أن صوته كان رقيقاً، كما كانت ذراعه مريحة وسرعان ما شعرت بالدفء والهدوء. وشجعها اهتمامه فسألته:

«هل تظن يا روم أن أنا و جان سيكونان سعيدين في يوم من الأيام؟»

وشعرت بعلامات ضيقه وعرفت أنه كان قلقاً على صديقه وأن جوابه سيكون دليلاً على رأيه في زواج الفجري بأجنبية، وهو رأي له في نظرها أهمية كبيرة، فإنها لم تتصور كيف تستطيع خالتها، ربيبة المدينة أن تكيف نفسها لتلاثم أي زوج حتى ولو كان مثل روم. فإن استعداداً لتغيير أسلوب حياته يدل على مدى الحب الذي سيضفيه على زوجته. وبعد فترة قال:

«رأيت أن على الزوجة أن تتكيف مع زوجها، لكنني الآن لست واثقاً من هذا».

وعندما أبدت دهشتها، قال:

«إن تضحية جان ترجع كفة أنا والأطفال، فقد يتنازل برضاه عن الراحة التي يشعر بها في منزل مستقر ويتنازل عن المال، ولكن حياة الفجر الحرة وصحبة أهله لا تعوضه عن حرمانه من أسرته أو حنان زوجته، فإن الرجل يهتم بذلك التفاهم وتلك الروابط التي تجمع بين الرجل والمرأة بحيث يتعاونان أمام الصعاب. وهناك رجال لا يصلون إلى هذا الارتباط ومنهم من يستعدون لقضاء حياتهم وحيدين بدلاً من قبول شيء لا يرتضونه. ولكن إذا عثر رجل على شريكة ممتازة لحياته مثل جان، فلا شيء يفرقه عن التي اختارها لتكون والدة لأبنائه».

وكانت مارييل تتوقع رداً أميناً، لأن روم يتصف بالأمانة، لكن الجديدة التي تكلم بها أحييت الأمل في نفسها. وشعرت بغيرة وحقد يصلان إلى حد الكراهية نحو خالتها التي أثارته هذا الشعور في الرجل الذي أحبته بقوة، وانحسرت العبرات في حلقها وهي تواجه حقيقة حبها لروم، محاولة أن تكون بمثل أمانته في الإفصاح عن شعوره. ترى منذ متى أحبته؟ وشعرت أنها أحبته طول حياتها. فعندما دخل في عملية المقايضة لينالها كهروس له، حصل على صفقة رابحة، لكنه لن يعرف أن قطع الذهب القليلة التي استبدلها بها قد جلبت له حياً يفوق كل شيء.

وفرحت بالظلام عندما جاء، فقد أخفى رجفة شفيتها. كما منع روم من فهم النظرة التي رآها مراراً في أعين المخلوقات الحبيسة في الغابة.

وعندما قلق على سكوتها قال هامساً:

«هل أنت نائمة؟»

فهزت رأسها وهي تخشى أن تفضح مشاعرها بصوتها، وشعرت بالمرح عندما سألتها:

«وماذا عن وجهة نظر أنا؟ هل تميلين إلى التعاطف مع حاجتها للاستقرار، أو تعتبرين سعادة زوجها في المكان الأول لو كنت في مكانها؟»

ونسي أهمية الحذر في كلامه وقال بصوت خشن:

«طبعاً هذا سؤال أحمق أوجهه إلى شابة انكليزية متحررة، تعتبر الحرية أمراً هاماً، أليس كذلك؟»

ثم ضحك يهدوه وقال ساخراً:

«ملذا أفعل بك أيتها العصفورة الصغيرة التي احتفلت بحريتها الجديدة فطارت إلى عش النسور؟ كيف أراك تناضلين في عالمنا المتعد دون أن أرغب في حمايتك؟»

وساد السكون ولم تسمع زقزقة طائر أو حفيف ورقة، وحتى القمر كاد يتوقف في محاولته الاختفاء وراء السحب خشية سماع ردها. وبسرعة انطفأ نوره تاركاً الغابة في حالة إنذار، سمعت من خلالها وقع أقدام فهمت أنها لجنود ولم تكن مارييل بحاجة إلى أن تنطق بأية كلمة تخرج من حلقها الذي توترت عضلاته، وظهرت قطرات العرق على جبينها بينما انتظروا اقتراب الأقدام منها. وسمعا صوتاً يقول:

«إننا نضيق وقتنا، فلا يمكن أن يخرج أحد من هذا الفرن حياً. انظروا كيف تعكس السماء حمرة الأشجار المحترقة».

ورد عليه زميله بحدة:

«ومع ذلك سنتخذ تعليقاتنا، فإن الاثنين اللذين نبحث عنهما غجريان يجيبان فن البقاء على قيد الحياة».

وتوقفت الأقدام عند مفترق الطرق.

«التجه أنت إلى اليسار وسأمتني أنا في هذا الطريق. افتح عينيك وأطلق الرصاص عند سماع أية حركة».

وسمعا صوت وقع أقدام أحد الجنديين وهو يبتعد عن المكان، ولم يجروا على التحرك وهما قابعان على الأرض بين الأعشاب، فإن أية حركة من إنسان أو حيوان كانت كفيلة بأن ينهال عليها الرصاص من بندقية الحارس القريب. وسمعا صوت ثقب يحمك بعلبته، وأزاح روم الأعشاب ونظر من خلالها فرأى رجلاً أدار له ظهره وأحنى رأسه وأخذ ينفخ في كفيه، ولم تلاحظ مارييل أن روم قد تحرك حتى وقف خلف الرجل ويده ممدودتان استعداداً للاطباق على عنقه. وأخذت ترقب في صمت المنظر الذي يدل على أنه متمرن على ممارسته. وانقض روم على الجندي وضغط بأصابعه الفولاذية على قصبته الهوائية حتى هوى إلى الأرض فاقداً الوعي.

وجذب مارييل من بين الحشائش واتجهها نحو السور مسرعين، وبفم جاف من الذعر أبعدت من ذهنها تصرف روم الجريء وأطاعته وهي ترتعد من الخوف.

كان السور بارتفاع ثمانية أقدام، وثبتت فوقه الأسلاك الشائكة، وعلقت بها هنا وهناك قطع من قماش ثوب كدليل على محاولة شخص لم يسعفه الحظ بالفرار. ومال روم على أحد الحواجز، وبدت صمت الليل صوت المقص الذي استخدمه في قص الحاجز. وفجأة صاح جندي من ورائه قائلاً:

«توقف!»

استدارت مارييل لتسرى ضوء القمر يسطع على البندقية

المصوبة نحوها، كان الجندي الثاني قد عاد وأثار غضبه اختفاء زميله وزاد من إصراره الوحشي على الانتقام. ويهدوه وقف روم وكأنه يستسلم للقبض عليه وهو على وشك الهرب. لكنه واجه الجندي وأدار ظهره للفتحة التي أحدثها في السور. وأخذ يرفع يديه فوق رأسه. حينئذ اطمأن الجندي، وفي تلك اللحظة بالذات، رفع روم المقص وصوبه بسرعة الصاروخ نحو رأس الجندي، فضغط الجندي بأصبعه على زناد البندقية في الوقت الذي سقط فيه على الأرض. واختارت الطلقة كتف مارييل.

وكانت الدهشة هي الغالبة على انفعالاتها العديدة وهي ترقب الدم يسيل من جرحها وهمست قائلة لروم وعيناه المشدوهتان تمران على وجهها الحزين:

«أصبت بالرصاص يا روم».

وفي خلال الساعة التالية أفاقت مراراً على أحاسيس مختلفة تركتها في حالة استرخاء تامة. فمن خلال ضباب إغمائها شعرت بذراعين تضمانها في حنان كبير وتحملانها بسرعة عبر الأرض الوعرة، وبعد ذلك سمعت أصواتاً كثيرة تتكلم باهتمام. وشعرت بلمسة سحرية تمس شفتيها قبل أن تسلمها الذراعان اللتان كانتا تحملانها إلى يدي شخص غريب. وكانت تسمع صغيراً مستمراً في أذنيها مصحوباً بعجلات تدور بسرعة وهي تنقلها إلى أماكن مجهولة. وقبل أن يطبق عليها الظلام تماماً، رأت أشخاصاً بزّي أبيض وشممت رائحة المخدر وسمعت صوتاً يقول لها صاحبه ليطمئنها:

«اهدأي يا عزيزتي، فلم يعد هناك ما يخيفك لقد وصلت إلى النساء».

## ٩ - الشك القاتل

كانت صوفي موجودة لتحيي مارييل، عندما فتحت عينيها في غرفة صغيرة فيها سرير واحد، ومقعد، وصوان قصير فوقه مزهرية مليئة بورد ناعم وقرنفل نفاذ الرائحة. ولتت الألوان الزاهية نظرها. ولثوان قنعت بعدم التفكير، بل سعدت بمشاعرها الجديدة التي تجول في خاطرها مثل الاطمئنان والحرية.

«كيف حالك يا مارييل؟»

وبدء صوت خالتها شعورها بالراحة والرضى، ودفع بالعبوس إلى جبينها وملاحظها، وكان المفروض أن تسعد لرؤيتها. لماذا إذا ارتجف قلبها فجأة وكأنه يذكرها بشيء لا ترتاح إليه؟ ولماذا تشعر بغريزة الرغبة في إخفاء مشاعرها، كما يستدل ذلك من ردها المضطرب؟

«أنا بخير... أين روم؟ هل هو بخير؟»

وابتسمت خالتها وقالت:

ذهب ليستريح ويصلح من هندامه.

وانحنت الخالة على السرير لتصلح الوسائد. وأعطت ذلك إهتماماً كبيراً كما لو كانت تبحث عن شيء يشغل يديها المرتعشتين.

«ظل بجوار فراشك طيلة الليل وكان قلقاً عليك. كنا نحن الاثنين قلقين عليك.»

وأغمضت مارييل عينيها لكنها قاومت رغبتها في النعاس لتسأل:

«هل سيعود؟»

وطمأنتها صوفي وهي تربت على يديها المسكتين بالغطاء:

«طبعاً يا حبيبتي، أفنعهنا بأخذ قسط من الراحة بعد تأكيد الطبيب له بأن منظره الذي يشبه منظر الشريد الملتحي ذي العينين الحمراء لن يساعد على شفاء أي مريض، لذا عودي إلى نومك وأضمن لك أنك ستجدينه بجوار سريرك عند استيقاظك.»

كانت مارييل تعرف أن خالتها كريمة لكنها كانت دائماً كذلك، ولكن عندما انقشع ضباب الهذيان الذي يربك تفكيرها، استطاعت أن تطمن بال صوفي بأنها تفهم الموقف بينها وبين روم، وتقنعها بأنها لا تعتزم أن تسبب لها إحراجاً. ولكنها ودت لو رآته مرة أخرى لتطمئن عليه. وبعد ذلك غلبها النعاس قبل أن تصل إلى قرار محدد. وتركت صوفي التي انحنت على سريرها تفكر في سبب الابتسامة المرتسمة على شفتي ابنة أختها.

أفاقت مارييل بعد ذلك بمدة ووجدت الغرفة يغلفها الظلام وكان بها مصباح يرسل نوره على غطاء السرير وعندما تحركت ظهر لها شبح شخص كان يجلس بجوار الحائط واقترب منها وانحنى فوقها بقلق ظاهر، ولما عرفته ابتسمت وقالت:

«روم...»

ورأت فيه تغييراً حيرها لكنها أبعدته عن ذهنها، ولم تفكر إلا في وجوده بجانبها بوجهه الشاحب وجاذبيته الطاغية شأنه في ذلك شأن كل سكان الحياة الطبيعية المفتوحة.

واتسم لها معبراً عن ارتياحه وكان عبناً ضخماً قد ألقى عن كاهله. وأمسك بيدها بحنان وجمال بنظره على عينيها المندهشتين وقمها المضطرب.

ارخت مارييل نظرها وبدت وكأنها طفلة معاقبة مغلوبة على أمرها. قال روم الشيء نفسه في الليلة السابقة لكن بصورة أقل جدية. قلما بطريقة تدل على التيرم الذي حاول إخفائه. لكن مارييل شعرت به بالرغم من محاولته. فقد حضر سريعاً ليراها وهو في طريقه إلى مقابلة بعض أصدقائه. الأمر الذي كان يتكرر كثيراً كلما تحسنت صحتها. وكان في زيه الحضري يظهر أناقة باردة، مما أبرز بوضوح الحاجز الذي أقامه خجلها. وعندما ردت على تحيته بهمس مضطرب قطب جبينه وظهر الفرق كبيراً بين ملامحه السمراء ولون قميصه الفاتح.

وعندما سحب كرسياً ليجلس بجوار سريرها سألتها:

«هل من شيء يقلقك؟»

شعرت بعينه تتركزان على فمها الذي أخذ يرتجف. ثم أخذ يداعبها بقوله:

«تعاني العصفورة الصغيرة من نوبة غضب لأن جناحها قد قصا مؤقتاً. أليس كذلك؟ يجب ألا تشعرى بالغيرة لأن أصدقاءنا يحتفلون بي وبصوفي. انتظري حتى نصل إلى فينا. وهي مدينة خلقت من الحب. حب الموسيقى، وحب الفن وحب المحيين. هناك سأعرضك كل ما تتوقين إليه.»

وانتظر متوقفاً أن تعود لطبيعتها الثائرة، إلا أن قلبها الحزين رفض فكرة الحوار اللفظي، واقتصرت على الردود المقتضبة الباردة. فقالت وعيناها مسبلتان:

«إنني لست حاقدة قط.»

وبخفة حركته المعهودة هب واقفاً.

«إذا ما هو السبب في تصرفك مثل الطفلة الغاضبة؟»

قال ذلك وقد أمسك بذقنها بين أصابعه القوية اضطرت أن تقابل نظراته الثابتة بعينها وقالت وهي خائفة من نهض أصابعه على جلدها: «أشعر بالخنين إلى الوطن، أريد العودة إلى انكلترا حيث الحياة المنطقية وراحة البال.»

وانفصم الاتصال بينها عندما ترك ذقنها تاركاً هوة من الصمت لا يمكن ملؤها:

«هل تكرهيننا جميعاً لهذه الدرجة؟»

ولفترة طويلة ساد الصمت بينها. ثم بدون أي تعليق آخر، خرج من الغرفة تاركاً إياها لتدفن وجهها في الوسادة، وتبكي وهي تواجه وحدها آلام نضجها الجديد.

وقلقت صوفي من الصمت الطويل ورأت أن العلاج هو أن تتظاهر بالوجه البشوش والتصرف المرح وهي تزف إلى مارييل ما اعتبرته خيراً ساراً:

«إن الطبيب يوافق على سفرك إلى فينا غداً.»

وراقبت صوفي بقلق رد فعل مارييل. وعندما لم تسمع تعليقاً على عبارتها عضت على شفتيها وأعدت الكرة قائلة:

«وعدنا روم بإعطائنا شقته في فينا. فكما تعلمين كان المفروض أن نقيم مع بعض أصدقائنا، ولكن بما أن منزلهم صغير صمم روم على أن نستخدم شقته حتى نكون مستريحين. إنها لا بد ستعجبك، فهي مريحة وكاملة وقريبة من المحلات التجارية.»

فرحت صوفي عندما لاحظت في عيني مارييل حيوية تتم عن حب استطلاع يقرب من عدم تصديق ما سمعته وقالت:

«هل لروم شقة في فينا؟»

«نعم، اتخذ فينا مدينة مختارة له. فينا هي التي احتضنته، يقول إنها المكان الوحيد الذي يرتاح إليه إذا قرر أن تكون له جذور ويستقر. وإذا ترك الأمر لأهل فينا فلا بد أنه يبقى في مدينتهم إلى الأبد. ولكنهم ينتظرون حفلاته النادرة كما لو كان بطلاً مغواراً. فمن من الناس لا يفرح بأن يضع يده على نبض جمهور ذواقة مثل أهل فينا؟» وهزت مارييل رأسها وهي لا تستطيع أن توفق بين الصور التي تعرفها عن روم وتلك التي رسمتها خالتها له. فعندما كانا في القبيلة تساءلت لماذا لم يتحف عشيرته بحفلاته الغنائية، لكنهم أفهموها بأنه كقائد لم لا يستطيع أن يكون تحت تصرف نزواتهم. فالظروف وحدها هي التي اضطرته لأن يقوم بهذا الدور أمام الأجانب. أما هنا فهو ملك نفسه. وأخيراً قالت صوفي وكأنها تتذكر شيئاً عابراً:

«استدعى روم فجأة إلى فينا وطلب مني أن اعتذر لك نيابة عنه لعدم مروره عليك. وأكد لي أنه سيعيد الشقة لتكون جاهزة لاستقبالنا عندما نلحق به غداً.»

وخرجت الكلمات من بين شفتي مارييل المطبقتين قائلة:

«أريد العودة إلى وطني.»

أكدت مارييل أنها لن تجد في فينا غير التعاسة، وهي تعاسة وجودها مع روم الجديد، روم الغريب ذي القدرة على الاندماج في أي مجتمع يجد نفسه فيه. أما روم القديم الذي عرفته وأحبته فقد تغير. بينما تعاني هي من وعوده التي أكدها لها حين قال: سأعوضك عن كل ما تفتقدينه. بدون أن يدري أن كلامه هذا يدمي الجرح الذي حدثه لها باعترافه بحب صوفي. فلا شيء في الدنيا يعوض فقدانها

إياها، انه الرجل الذي اعتريته في نوبات هذيانها وأحلامها، زوجها!

«ما زلت ضعيفة يا عزيزتي، محتاجين لتريض جيد ونقاها طويلة قبل أن تفكري في السفر إلى انكلترا، هذا إلى جانب ما يترتب على ذلك من وحدتك هناك. في وسعي أن أصحبك إلى هناك لولا أن لي عملاً في فينا لا يمكن تأجيله. أرجوك يا مارييل لا تتخذي قرارات حمقاء.»

ولم تغب عن مارييل الرجفة التي بدت في صوت خالتها ولا نعومة نظراتها الحاملة وهي تتكلم عن العمل الذي ينتظرها في فينا. ولا شك أن روم كان المقصود بذلك. أنه هو العمل الذي تحدثت عنه. وضغطت على نفسها لتواجه الواقع. وهكذا وجدت القوة لتقرر أن تمضي مع المهزلة إلى آخر مداها المرير.

وحفاظاً على سمعتها وكبريائها رأت أنها لا تستطيع أن تهرب إلى انكلترا بمشاعر جريحة. وعندما شعرت أن صوفي تكاد تكشف سرها بلعت ريقها بصعوبة وقالت:

«أنت على صواب كعادتك دائماً يا خالة صوفي، يجب أن أبقى هنا لفترة على الأقل، فأرجو أن يكون حسابك في البنك بخير، فإني بحاجة إلى ملابس داخلية وخارجية. وبما أنني مفلسة فعليك أن تعاونيني إذا أردت ألا تخجلي من ظهورك في فينا مع ابنة أخت معدمة.» وردت عليها ضاحكة وهي تقول:

«ليست هذه المشكلة، فكل ما لدي هو ملكك يا عزيزتي، فإني أتوق إلى مرافقتك في رحلة الشراء التي ستقومين بها.»

مرّ أسبوعان قبل أن تقر صوفي أن صحة ابنة أختها قد تحسنت بالقدر الذي يسمح لها بالخروج لشراء لوازمها. وفي تلك الأثناء كانتا

قد استقرت في الشقة التي أعدها روم لها، وفيها توثقت علاقات الصداقة بينها. ففي أثناء النهار اعتادت الخروج لرياضة المشي على الأقدام في المنتزه القريب. وفي المساء كانتا تتجاذبان أطراف الحديث وتضحكان، أو تسمعان الموسيقى في هدوء وألفة. وعلى مر الأيام فهمت كل منهما الأخرى تماماً. وحاولت مارييل أن تعتذر على إفسادها خطط التنظيم التي وضعتها خالتها. لكن الخالة لم تحب أن تلوم مارييل نفسها على ذلك فقالت وهي تبعد هذا الموضوع عن تفكيرها:

«ربما كان الأمر لا مفر منه، فلا يستطيع الانسان أن يحيا إلى الأبد في حالة عدم اتخاذ قرار، ولم يكن لي حيلة في ذلك.»

وأصرت مارييل على الوصول إلى المزيد من الايضاح، لكن صوفي لم تشجع على أن تستدرجها مارييل في الحديث. فبابتسامة هادئة قالت:

«لعلك أسديت لي خدمة كبيرة. ولكن الوقت وحده هو الذي سيثبت رأيي، لذا لن أقول أكثر من ذلك.»

ولم يريا روم كثيراً سواء أكان ذلك عمداً من جانبه أو بسبب كثرة أعماله، ولم تعرف مارييل الحقيقة. وكان في غيابه راحة لمارييل التي لم تتحمل وجودها في نفس الغرفة التي هو فيها مع صوفي وهما يتسنان لبعضهما، وكان بينهما أسراراً، كما كان حديثهما تتخلله كلمات التدليل التي تدل على مشاعر مكبوتة حرصاً على التقاليد. وكانت مقابلتها محرجة بالنسبة لها ومؤلمة خاصة وأن روم كان يجب أن يدفع حمرة الخجل إلى وجنتيها عندما يحاول أن يكون لطيفاً معها ويوليها هي الأخرى جزءاً من اهتمامه.

وكانت أعصابها متوترة إلى أقصى حد عندما وجه إليها كلاماً أشعرها بأنه يعتبرها كالطفلة الصغيرة. وكانت صوفي قد استأذنت لتدخل إلى المطبخ لاعداد القهوة وبدد سؤاله الذي ساد بينهما:

«والآن وقد تحسنت صحتك يا عزيزتي، هل تشعرين بالرغبة في الخروج للعب قليلاً؟»

وشعرت كأنه يقارنها بخالتها ذات المظهر الشاب الذي يشير قوامها وحركاتها الرشيقة تعليقات الناس. فبجانبتها تشعر بضالتها وحرجهما وعدم نضجها، أو بعبارة أخرى تشعر أنها لا تستحق إلا الرثاء. لذا رفعت رأسها معبرة عن غضبها وقالت:

«إنني لست طفلة.»

فرفع حاجبيه من الدهشة، لكنه تمهل حتى انتفى سيكاراً ليدخنه ثم قال بيرو:

«لم أعتريك طفلة حتى الآن!»

وتزايد غضبها ولم تستطع السيطرة عليه، وهبت واقفة للهرب من الغرفة، لكنها لم تفعل رغبة منها في إيلاسه. وكان ينظر إليها عندما استدارت على عقبها وقالت:

«إنني أكرهك فأنت أكثر الرجال الذين صادفتهم عجرفة. ورأي أن خالتي أفضل منك وأنت لا تستحقها.»

بالرغم من جودة المحلات التجارية في فينا، إلا أن صوفي كانت تعرف خياطة متفاعدة تحب أن تمارس مهنتها بتصميم الملابس وحياتها لعدد من الزبائن. وبما أن كل الأبواب كانت مفتوحة أمام صوفي فلم يكن من الصعب عليها أن تحدد موعداً مع كريستا التي يقع محلها في شارع قريب من شقتها. وبالطبع كانت مارييل

تقوم بشراء معظم لوازمها الداخلية من المحال القريبة، لكن حماسها كان كبيراً عندما صحبت خالتها إلى منزل السيدة العجوز التي اعتادت أن تتفحص قوام التي ستحيك لها عندما تصافحها. وقالت كريستا بجديّة:

«لا أستطيع مقاومة تحدي كل منكما للأخرى، فإحداكما الساذجة والأخرى المتحدّقة.»

وابتسمت صوفي وقالت:

«حسناً، طالما أن حماسك يفيدنا! كما تعرفين تحضر حفل الأوبرا أكثر نساء العالم أناقة ولديّ سبب وجيه أريد من أجله أن نبذو على أحسن وجه. أنتستطيعين إعداد ملابس لنا؟»

فضحكت الحياطة وقالت:

«بكل سرور...»

ثم دقت الجرس لتستدعي مساعدتها وقالت لها:

«ارشدي السيدتين إلى الغرفة التي نحتفظ فيها بالأقمشة، ثم سأحضر بعد ذلك لأرى اختيارهما.»

وأخذتها الفتاة إلى الغرفة. حيث كانت هناك امتار من القماش، معلقة على مشاجب لتظهر جمالها ولتعطي الزبائن الفرصة للمسها والاعجاب بها. ولما كانت مارييل متضايقة بسبب إرغامها على شراء ثوب لمناسبة قررت ألا تحضرها، لذا تراجعت عندما عرضت عليها خالتها قطعة من الحرير الخام.

«ألا ترين أن هذا القماش رائع يا مارييل؟ إننا مرغمتان، حسب التقاليد، على ارتداء اللون الأبيض لكن لا تقلقي، فاللون يناسب لون بشرتك، أما أنا بشعري الفاتح ولوني الشاحب فسأبدو فيه كالشبح

الكالغ.»

وحلوت مارييل أن تغير الموضوع فقالت:

«هل تتضايقين إذا...»

«إذا قررت عدم الذهاب إلى الحفل؟ نعم بلا شك سأتضايق... أولاً أرفض الاستماع لأي أعذار تقدمينها، فقد تقى سنوات طويلة لمثل هذه الفرصة، وستفسدين ليلتي بلا شك إذا رفضت الحضور. كما أن روم هو الذي سيأتي لنا بالتذاكر ليس من النوق تركها له، خاصة وأنها مطلوبة جداً.»

وأخيراً اعترفت بهزيمتها فقد كانت خالتها سيدة صلبة الرأي، ومع ذلك كانت في تلك المناسبة بالذات أكثر إلحاحاً عن عاداتها في تنفيذ رغبتها.

أخذت مارييل تجول في الشقة وهي تتعجب من عدم وجود دليل فيها عن عمل روم، وشعرت أن الغرف تندب، كما تندب هي، غياب شخصيته القوية عنها. وأمسكت بإحدى التحف القليلة الموجودة بالشقة، وأخذت تتأملها وهي تنتظر خالتها حتى تخرج من غرفتها، حيث كانت ترتدي ملابسها استعداداً لحضور الحفل. أما هي فأنتهت من زينتها وشعرت من صورتها في المرآة أنها أجمل مما بدت من قبل. كان ثوبها من الحرير الذي يمس بطياته لحناً حزيناً حول كاحليها عندما تخطو، أما نصفه العلوي، فترك ذراعيها عاريتين والتف حول كتفيها يغطي أثر الجرح الذي سببته الرصاصة، لكنها كانت تعاني من جروح أعمق منه، جروح قلبها المرهق من كثرة التشيل والملاحق. وكان شعر مارييل مصفواً بطريقة جميلة ومثبتاً بمشابك من اللؤلؤ مثل لون بشرتها. لكن عينيها كان ينقصهما البريق.

وضعت التحفة من يدها وقطبت جبينها. وكان هناك موضوع تريد مناقشته مع خالتها قبل وصول روم فبدت متضايقه من إيصال الملابس الذي عثرت عليه ملقى بجوار سلة المهملات. وعندما قرأت ما فيه هالها الرقم المذكور. أما ما أقلقها أكثر تلك العبارة المكتوبة على الإيصال وتفيد أن المبلغ قد سدد بمعرفة روم. كانت خالتها عند الكوافير حين عثرت على الإيصال وعند عودتها دخلت إلى غرفتها لتستعد للحفل ولم تسنح لها الفرصة لمناقشتها.

سمعت مارييل صوت الباب يفتح، فالتفتت وهي متحفزة

بأسئلتها إلا أن الكلمات تعثرت على شفيتها بسبب إعجابها بخالتها. وضعت كريستا يدها على الصفات التي تفتقر إليها صوفي. وبينما وجهت اهتمامها إلى أناقته ثوب مارييل، عكست القاعدة في ثوب صوفي وجعلتها تبدو متألقة. كان مصنوعاً من الدانتيل الأبيض وله أكمام طويلة مبحوكة على ذراعيها وخصر نحيل يعلون تنورة متسعة. أما الياقة فكانت توحى بالبراءة لارتفاعها نحو قسباتها الجادة مثل ياقة الراهبات. وشعرها خالياً من المشابك ومصقولاً كالحرير. وكانت السعادة تشع من عينيها مثل الطغلة التي تحضر أولى حفلاتها، أو كالشابة التي تستعد لأول موعد غرام أو كامرأة في قمة الحب. وسألت

مارييل:

«ما رأيك في؟»

«رائعة!»

ودق الجرس فضحكت صوفي وانجهدت إلى الباب واثقة أن القادم

روم. لكن مارييل قاطعتها:

«انتظري.»

ولم يكن هناك وقت لنقاش طويل إلا أنها كانت تتوق لمعرفة

الحقيقة، فقالت:

«عثرت على هذا... وعليه اسم روم. ولا أفهم شيئاً.»

وبالكاد نظرت صوفي إلى الإيصال، ولم ترد أن تزجل السعادة

المرتقبة فقالت:

«كنت أعتزم أن أخبرك بأمر الإيصال لكنني نسيت... صمم روم على

الدفع، لكنني لم أفهم ما يعنيه بلفظ الدوطة، أي بعض العملات

الذهبية الخاصة بك والتي يحتفظ بها عنده باسمك.»

وبهركة سريعة فتحت الباب وأدخلت روم. وفي لفتتها عليه  
نسيت روح العداة التي قابلته بها مارييل عندما التقت نظراتها.  
وانتهبت إلى أن كل ملابسها قد سدّت بالنقود التي كانت ثمناً لها.  
ساعدتها روم في ركوب السيارة ووصف للسائق المطعم الذي  
سيتعشون فيه. وعندما تحركت السيارة أخذ يتفحصها في تمهل، فنظر  
إلى وجه مارييل الثائر، ثم إلى وجه صوفي السعيد وأناملها  
المرتعدة وهي تحاول تثبيت الوردة التي قدمها لها روم.  
«دعيني أساعدك».

وثبتت الوردة بحنكة المجرب الحيين، ثم التفت إلى مارييل بنظرة  
تساؤل، لكنها كانت قد ثبتت زهورها بنفسها، وهي زهور البرتقال التي  
تذكرها بحفلات العرس. رفضت استعداده لمساعدتها والتقت نظراتها  
إلا أن العينين الرماديتين انخفضتا أمام نظرة الحيرة التي في عينيه،  
وبدا الضيق في صوته عندما تجاهلها وأخذ يتحدث مع صوفي:  
«جاء اليوم يا عزيزتي الذي طالما انتظرته، فلا داعي لسؤالك إذا كنت  
سعيدة».

ضحكت صوفي ضحكة رنانة وقالت:

«نعم أنا سعيدة، فهناك سحر في الجو الليلية، ألا تشعر به؟ فستألق  
النجوم ببريق ساطع، وستطوف الموسيقى بأجنحة الملائكة، وستفرح  
فيينا كما لم تفعل من قبل».

ومدت يدها لتغطي يد روم وقالت:

«أرجوك السعادة أيضاً يا عزيزي روم».

ونظرت مارييل من النافذة دون أن ترى شيئاً. وكان باعة الورد  
يعرضون سلعتهم الجميلة والناس يصطفون خارج المسارح انتظاراً

للدخول. وساءلت نفسها كيف ستقضي السهرة التي تحمل الكثير في  
طيبتها بالنسبة للثنين اللذين معها. وكأن اتفاقاً قد تم بينها على  
المقابلة في فيينا في ليلة الحفل. لقد انتهى فراقها منذ أسابيع،  
ولكنها فضلاً لأسباب عاطفية أن يتقابلا بهذه الصورة الخيالية حتى  
تظل تلك الليلة راسخة في ذاكرتها. واغتازت مارييل وضغطت  
على عواطفها فبدت وكأن الأمر لا يسها.

ولم تذكر شيئاً من الحديث الذي دار في المطعم. مع أنها اشتركت  
فيه إلا أن ردودها الآلية قد أثارَت روم حتى سألتها:

«هل حديثنا يثير ملك يا مارييل؟ أم أنك على وشك الدخول في  
إحدى نوباتك التي اعتدنا عليها».

دهشت لقوله حتى أن الملعقة سقطت من يدها. وكادت ترد عليه  
عندما ظهر شخص بجانبها يلبس نفس ملابس السهرة التي يرتديها  
روم. حلة سوداء ورباط عنق أبيض، وانحنى والتقط الملعقة قائلاً:  
«اسمعي لي يا عزيزتي!»

ثم استقام ببطء وابتسم لصوفي التي همست، وقد امتقع لونها:  
«ستيفان! أحقاً أنت يا عزيزي؟»

وهب روم واقفاً وابتسم وألح على الرجل بالجلوس معهم، فجلس  
لكنه لم يتكلم مكتفياً بسعادة النظر إلى الجمال الذي بجواره. وسأله  
روم:

«هل تناولت طعامك؟»

فقال ونظراته عالقة بصوفي:

«كلا... حجزت مائدة وطلبت طعاماً لشخصين».

وجالت الدموع في عيني صوفي؟ عندما مد يده وأمسك بيدها ثم

«هل جنت إلى هنا بعد كل هذه السنين؟»

وأوماً برأسه وقال:

«جنت إلى فيينا كل عام، لمدة عشرين سنة، لأنتظر فتاة في هذا المطعم، وعلى نفس المائدة، لكنها لم تحضر. إن الخدم ينظرون إليّ ويظنونني مجنوناً خائته تخيلاته حتى اعتقد أنه سيقابل المرأة التي يجيها في يوم من الأيام. فهلا اصطحبتني إلى مائدتنا لأثبت لهم خطاهم؟»

وافقتة والانتقال يخفقها، كما كانت شاردة الفكر بحيث لم تحييها بكلمة قبل أن تتركها وتختفي من أمامها:

زادت دهشة مارييل عندما ابتسم روم وجلس على المقعد الذي تركته صوفي. وقالت له متسائلة:

«إنني لا أفهم شيئاً. ألا يحبك انصرافها مع غريب؟»  
فرد عليها قائلاً:

«هل ستيفان غريب؟ لقد كان الاثنان حبيبين عندما كانت صوفي فتاة يافعة، وقبل أن يفر ستيفان إلى إنكلترا لينضم إلى سلاح الطيران رجاءاً أن تزوجه، لكنها رفضت أن تترك والدها بمفردهما في وارسو. وهكذا افترقا على وعد اتفقا عليه، وهو أن يلتقيا في هذا المطعم في ليلة الأوبرا بعد الحرب. وإذا لم يستطع أحدهما الحضور، يحضر الآخر حتى ينجحاً في الالتقاء. ولكن لم تسر الأمور كما يشتهيان، فعندما انتهت الحرب كانت صوفي تساعد الناس ولم تستطع مغادرة البلاد بالرغم من تيسير سبل الهرب أمامها، وهكذا حضر ستيفان إلى فيينا كل عام على أمل رؤيتها.»

وفهمت مارييل رد خالتها عند اعتذارها لافسادها مشاريع المنظمة بقولها:

«ترين أنه ليس لدي أي اختيار...»

فكم يسهل عليها الآن أن تفهم حيرة خالتها إذ كان الاختيار بين سعادتها وسعادة أنصارها. فعندما تذكرت ظلمها لخالتها غمرها الحجل. ثم خرجت من صومعتها بحواسها متنبهة. وكان العازفون يعزفون لحناً راقصاً، والمطعم يعج بالناس وكلهم على استعداد للاستمتاع بليلتهم. وداعب النور الخافت ملامح روم وأظهر فيه مرح عينيه. وتصاعد دخان السيكار ولفها في إلفة تنذر بوعود جعلتها ترتعد. كما شعرت أن روم مستمتع بصحبتها حين قال لها:

«يحسن أن نتم كلامنا خلال العشاء لأن هناك أشياء كثيرة تريدني السؤال عنها، لكنني لا أرغب في قضاء السهرة في الحديث.»

أما ماذا يريد بدلاً من الكلام فلم يفصح عنه. ولكن كانت لهفتها على إلقاء أسئلتها كبيرة فقالت لروم:

«قلت إنك تحب صوفي ومع ذلك لا تعترض على أحقية ستيفان فيها، فمن المحتمل أن تتحول مشاعرها إلى غيرك. وكما تعلم فالناس يفعلون هذا أحياناً.»

اهتزت شفتاه وقال:

«عبرت عن رأيي منذ بضعة أيام وقلت أنني لا أستحق خالتك لأنها أحسن مني، وأعترف أنني دهشت لتعليقك وقتئذ ولكن بعد قليل بدأت أفهم أن...»

وتوقف وهو يدرس وجهها، وكأنه يستطيع الوصول إلى أسرارها. ثم تابع كلامه:

«إنني أحب صوفي ولكنني لم ولا أعشقها».

وعندما أرخت أهدابها، امتدت يده لتمسك بيدها وقال:

«لا تخفي نفسك عني يا مارييل، أريد أن نتحرر الليلة من كل أثر

لسوء التفاهم بيننا. يجب أن يكون كل منا صريحاً أليس كذلك؟»

وأراد جانب منها أن يهرب من نظرتة الجارفة، أما الجانب الآخر فقد

كان غارقاً في اهتمامها به. وطمتمت قائلة:

«نعم، يدين كل منا بذلك للآخر».

«حسناً... إذا أخبريني لماذا عندما حضرت لمصاحبتك الليلة قابلتني

بنظرة ازدراء؟»

وشعرت بالخرج عندما أرغمتها نظرتة على الاعتراف:

«لأن صوفي أخبرتني عن مصدر النقود التي دفعت ثمناً لثوبينا.

وكنت تعرف وأنت تدفع دوطتي، كما تسميها، مدى شعوري بالمدلة».

فاندھش وقال:

«لكن النقود هي ملكك. واحتفظ بها لك. فلماذا تشعرين بالمهانة؟ أليس

من حق المرأة أن يدفع زوجها ثمن ملابسها؟»

فردت عليه وقد تولها الغضب:

«كلا... إذا كان لا يطالب بحقوقه»

ولم يحاول أن يدعي جهله بما تريد قوله:

«لن تغفري لي إذا طالبت بحقوقتي، ما حدث تلك الليلة في منزل

جان كان تجربة لا أريد تكرارها، تركي لك تلك الليلة كان من

أصعب الأمور».

وجلمت فيه وهي تخشى أن تصدق ما قاله، فقد صم أن يكون

صداقاً حتى أنها لم تجرؤ على توجيه السؤال الذي كانت تتمنى أن

تسأله خوفاً من رده، لكنها كانت تتوق لمعرفة شيء بالذات. هل كانت  
رغبته فيها تلك الليلة بدافع الحب أم كانت تعطشاً مصدره غريزة  
الرجل؟

إلا أن حديثها قطع قبل أن تجمع شجاعتها لالقاء السؤال. وتلاشت

لحظة قول الحق، وطمتمت مارييل لوأبعدت صوفي و ستيفان

عندما عادا إليهما والسعادة بادية عليهما. ولم يرحب روم بعودتهما

أيضاً، لكنه وقف لها احتراماً دون أن يبدو الضيق على ملامحه.

وكانت السعادة تشع من صوفي عندما اقترحت قائلة:

«يجب أن نذهب إلى دار الأوبرا الآن حتى نصل قبل بدء العرض».

نظر روم في ساعته ووافقها على رأيها، وسرعان ما كانوا في

طريقهم إلى دار الأوبرا.

كان السؤال الحائر ما زال حائماً بينهما مثل السحابة.

وعند وصولهم إلى دار الأوبرا كان المكان يعج بالأضواء والموسيقى

والضحكات، وكانت فينا زاهية الألوان تتأرجح بالمشاعر الفياضة،

كما كانت المنازل القديمة تعج بالشباب والمرح اللذين ترحب بهما بزوار

المدينة. تركت مارييل و صوفي الرجلين في المدخل وذهبتا لتضعا

وشاحيهما في غرفة حفظ الملابس. وكان الجو مفعماً بالاشارة والحماس

الشديدين حتى أن الكلمات لم تعد لها ضرورة، وشعرتا بأنهما على

حافة حدث كبير ومناسبة لا تحدث إلا مرة في العمر، وودت مارييل

لر انضمام للرجلين فوراً، إذ كانت تتوق لصحبتهما. أما صوفي

فتلكأت أمام المرأة لتصلح من زينتها. وتلاقت نظرتها بنظرة

مارييل في المرأة وهي على وشك وضع أحمر الشفاه على شفثيها

وسألته.

«هل تأكدت من كل شكوكك يا عزيزتي؟»

فارتعدت مارييل، كانت تشك دائماً في أن صوفي قد استنتجت

أمر حبها لروم، لذا ردت عليها قائلة:

«كلا لم أتأكد منها كلها.»

وألحت صوفي قائلة:

«أيمكنني مساعدتك؟»

فردت عليها مارييل وهي تتفادى عينيها:

«لا أظن ذلك.»

«جربيني ولا تخشي من الاعتراف بحبك لروم، فهو شخص رائع،

لكنني أفهم سبب مخاوفك من الحياة التي سيجياها إذا أصبحت

زوجته.»

فضحكت بدهشة وقالت:

«زوجته! لا أتصور أن يعترف روم بمثل هذه الحاجة، فهو رحالة

اعتاد حياة الوحدة. والزوجة لن تضيف شيئاً إليه.»

ثم وضعت صوفي أحمر الشفاه في مكانه وأغلقت حقيبتها قائلة:

«تفكيرك خاطيء، ظننتك تعرفين روم، لكنني أراك مخطئة. فروم

اعترف لي منذ سنين بسر لا يعرفه غير القليلين، وقد يكون استنتجه

بعض المقربين من أفراد القبيلة لكنهم غير متأكدين.»

واسترسلت قائلة وهي تغالب نفسها للكشف عن السر:

«يعتقد أنه ولد وعليه لعنة معينة، وهي أن يكون طريداً وشريداً

ومحكوماً عليه أن يعيش بقية حياته والساء لحافه والعجلات تحت

قدميه. ألا ترين يا مارييل أنه يتوق إلى بيت يستقر فيه وأسرّة

يعيش بينها؟ وهو شيء لا يتوقع أن يجده في القبيلة! فقد يكون شكله

كالفجر وسحره كسحرهم، لكنه ليس معتاداً غرائزهم. وإني على ثقة

من أنه مع واحدة مثلك يستطيع أن يمد لنفسه جذوراً هنا في فينا

ويعيش كما قدر له الله أن يعيش، أي بين أمثاله من الناس.»

فالتفت إليها مارييل ونظرة ألم في عينيها وغالبت دموعها

قائلة:

«هذه مجرد آماني تعبرين عنها يا خالة صوفي.»

واستطردت تقول:

«إنه كرم منك أن تتسني لي نفس السعادة التي عبرت أنت عنها. لكن

للأسف لا يمكن التحكم في القدر مهما حاولت ذلك. فأنا بالنسبة

لروم مصدر مضايقة يريد الخلاص منه. نعم، إني واثقة من أن

اهتمامه بي قد زاد في المدة الأخيرة، لكنني لم أسمح لنفسي أن أنسى أن

هذا التغيير هو جزء من الاسترضاء الذي يشعر بأنه يدين به لي.»

ثم ابتعدت عن خالتها وعندما وصلت إلى الباب استدارت وألقت

إليها بعبارة أخرى مريرة:

«بما أن هذه الليلة تعتبر آخر فرصة لهذا الاسترضاء، فأرجو أن تسمحني

لي بالأ أضيع أية دقيقة فيها...»

كانت دار الأوبرا من الداخل مثل قصور الروايات الخرافية. ومكان الأوركسترا مغطى بألواح خشبية تعطي اتساعاً للشرح. المقصورات وحافة الصفوف العليا مزينة بعقود من زهور القرنفل الحمراء، كما كانت تزينها الشبابات بملابسهن البيضاء، ويصحبهن رجال بملابسهم السوداء. وهن يخطرن كالدمى تحت الثريات البراقة.

وكانت الأوركسترا تنهياً استعداداً للعزف عندما وصلت مارييل إلى جوار روم وأدار رأسه نحوها بطريقة غريزية. ابتسامته التي وجهها إليها دافئة بددت شكوكها. نظر إليها دون أن يتكلم وقد نسي كل الجمال الذي حوله. وتعبيراً عن رضاه بما قرأ في وجهها، لف ذراعه حول خصرها وأخذ يرقص معها.

سعدت مارييل بحضنه الذي كان خليطاً من الحلو والمر. ولم تدع تفكيرها يدور حول الغد بما يحمل من شعور بالوحدة والعذاب، بل قررت أن تنعم بكل دقيقة من الذكريات الحلوة التي تهيئها لها تلك الليلة. فلذا لاحظت في نظرها سحابة من اليأس، فإنه لم يلاحظها. إنَّ الفم المرتعد والرجنتين الورديتين قد تكون علامات السعادة أو الألم. وأخذ قلبها يدق مع وقع الموسيقى وبدأ هادئاً، ثم اشتد تدريجياً حتى استسلم عندما اشتد ضغط ساعديه وامتزج قده القوي برشاقتها الرقيقة وأصبحت واحداً عندما أخذها يتحركان. ولم تخطيء خطاها مرة واحدة بفضل رقصه المتقن. وبعد عدة رقصات كانت تنساب كتور القمر على حلبة الرقص. ترك روم خصرها عندما سكنت الموسيقى،

لكنه ظل يداعبها وهو يقود خطواتها نحو مائدة عليها دلو مملوء بالشاي وتتوسطه زجاجة شراب. ولم يكن ستيفان و صوفي موجودين عندما أخذ روم يصب السائل الذهبي في الكؤوس، ولم يسمع أحد غير مارييل النخب الذي قاله:

«في صحة الحب، يا عزيزتي، والوفاء والتفاهم».

والكأس بيده ينتظر ردها، وكأنه يطلب منها منحه الصفات الثلاثة، الحب والوفاء والتفاهم، ولكنه لم يتضايق عندما تمتنت بشيء لم يسمعه تماماً، بل شربت ما في الكأس بقلق جعلها تسعل، مما أقلق روم فأخذ يقترب منها ويقدم لها منديل الكبير المشبع برائحة التبغ وماء الكولونيا وأخذ الناس يتحركون حولها، لكن مائدتها كانت كقارب وسط بحر مضطرب عندما قرب شفتيه من أذنها وقال:

«دعينا نذهب حيث نكون بمفردنا...»

وللهولة الأولى كادت ترفض، لكن تعبير وجهه أشعرها بأنه لن يقبل الرفض، لذا سمحت له وأعصابها مرهفة، أن يصحبها إلى الخارج. وبجوار الأوبرا يوجد منتزه كانت مقاعده مغلقة بظلام الليل. وعندما أخذوا يتجولان في الحديقة خفت صوت الموسيقى حتى صمت تماماً. وكان صوت حفيف ثوبها هو الوحيد المسموع في سكون الليل. ولما تذكر أنها لا تتحمل جميع أنواع الأجواء قال:

«ليس معك وشاح، دعيني أعطيك سترتي».

لكنها رفضت وقالت:

«كلا... أشكرك، أشعر بالدفء».

أن لبس سترته يعتبر رفع كلفة محفوفاً بالخطر.

وشعر بالغضب لرفضها وقال بحدة:

«هل وصلت كراهيتك إلى حد كراهية ملاهي؟ إن سترتي لن تعضك وأكمامها الخالية لا ضرر منها، لماذا تتصرفين هكذا؟ قضيت أسابيع أحاول أن أكسر جمودك، لكنك تتباعدين من تقريري وتتهربين من مفاصحتي لك... هل يهربي في عروقك دم أم تلج؟»

وكان الأسهل أن تعتمد على الغضب لتستخدمه ضد جاذبيته الجارفة، ورغم أنها كانت مستعدة للاستمتاع بكل دقيقة من هذه الليلة، إلا أن عواطفها كانت تقاوم سيطرته. وشعرت أن القسوة هي الطريقة الوحيدة التي تثبت بها سيادتها عليه وعلى نفسها، فقالت بيرو:

«اتضح أن الصداقة بيننا أصبحت مستحيلة. لذلك انساني واتركني وشأني، فبعد بضعة أيام سأرحل وستنساني سرعاً بمجرد سفري.»  
«أنسالك»

وبسرعة احتضنها بين ذراعيه بغضب وكأنه يعاقبها، فلم تعد مخالب الأسد معسولة، كما لم تكن كلماته حانية بل قاسية.  
«أتريدين أن أنسى أنك عروسي؟ أنسى الليالي التي قضيتها أنصت إلى همسك وأنت نائمة، وإلى صوت تنفسك. وأنا أكبح جماح مشاعري خوفاً من أن تكون رغبتني سبباً في تعاستي؟»

وأخذ يهزها حتى بدأت تلهث. واستمر في كلامه قائلاً:  
«إنتي أحبك أيتها المجنونة الثائرة، صورتك محفورة في قلبي، ومع ذلك تتكلمين عن نسياني لك؟»

وترك كتفيها ليضم جسدها الرقيق المرهف بين أحضانه ويقول:  
«أنسالك! بل اسمحي لي أن أحصل على شيء سأذكره طول حياتي.»  
وكان تصرفه تصرف الفجري الجريء الذي انتزع استجابتها من

قرارة نفسها. وانسابت المشاعر بينها وأرسلت هزات في عروقها تؤكد الاستجابة لجاذبيته الطاغية. ففي أول الأمر كان غاضباً ومنذفعاً برغبته في الانتقام منها، بحيث لم يظن إلى يقظة استجابتها له. وعندما لم تبد اعتراضاً، اعترته الدهشة، وحين لم يجد أي أثر للمقاومة، بل ظلت مستسلمة له، تمت بكلمات هامسة تتم عن سعادته المشوبة بالدهشة. وأقبل عليها بعاطفة قوية يشبث بها انتصاره الذي طال انتظاره له. وكان يشعر بقلبها وقد أخذ يرتجف كالطائر الحبيس. وعندما استجاب له، شعرت بحرارة تنساب في داخلها وتطمئن حواسها بأنه لن يجدها أقل منه لطفة عليه. لذا سعدت بحنانه وذراعيه اللتين كان في إمكانهما القسوة عليها، لكنها كانتا تترفقان بها. وقال بصوت عميق هادئ:

«أنت لي لآخر يوم في حياتي...»

وترك أصابعه تتغلغل في شعرها وتنتشر المشابهك منه حتى انساب كالزئبق بين أصابعه، ولما ارتاح لهذه المداعبة ضحك ودفن وجهه في خصلات شعرها. فشعرت بالأرض تميل من تحت قدميها والفكر يتوه منها. وتركزت حواسها في ضجة ذراعيه وعمق صوته وكلها مشاعر أكدت لها أن الحلم الذي كانت تعتبره مستحيلًا، والرغبة التي لم تجرؤ على التفكير فيها، أصبحت حقيقة.

وكانت طبيعة بين ذراعيه، وسعيدة، عندما وجداً أخيراً وقتاً للكلام فقالت بدهشة:

«إنتي لا أصدق هذا...»

وكان يقف وراءها يطوق خصرها بذراعيه حين قال وهو يكشف عن عقيدة عشيرته المتبناة:

«إننا لا نستجوب القدر، فبالنسبة إلى أكتفي بوجودك بين ذراعي أيتها الأوزة البرية الصغيرة، فقد صدقت أسطورة العجر، فمهما فرت من صاندها فإنها تعود إليه».

إن روم هو صاندها الذي استحوذ على قلبها. واستدارت بين ذراعيه لتداعب خديه بكفيها. وتأثر عندما اعترفت ببساطة وصدق: «إنني أحبك جداً يا حبيبي، فمنذ لقائنا الأول أردت أن أقاوم هذا الحب، ولكن في ليلة زفافنا تأكدت...»  
«هل حدثت حقاً ليلة الزفاف هذه؟»

قال ذلك وقد أمسك كل أصبع من أصابعها ولمسه بشفتيه.

«عروس متمنعة تعترف بحبها متأخراً، وعريس يصمم ألا يصبح زوجاً وألا يتعمد أن يعادي عروسه».  
ثم همس مستطرداً كلامه:  
«إنني أعدك بشيء يا حبيبتي...»  
«ما هو؟»

«أعدك أن تكون ليلة زواجنا الثانية مختلفة تماماً».

وكانت ما تزال تشعر بالوجل منه، فلم تستطع النظر إليه، لذا تمادى في مداعبتها وقال:  
«سيكون لنا أطفال كثيرون... أولاد سمر يلعبون في الغابات مع أصدقائهم العجر. كما ستكون لنا بنات جميلات تسحرن قلوب أهل فينيا بحسنهن الانكليزي».

وشعرت بأنه يريد منها أن تسأله سؤالاً خاصاً:

«وأين ستقيم أسرتنا هذه يا روم؟»

مالت عليه وانتظرت رده. فسواء أقاما في الشرق أو الغرب أو في

عربة عجر أو قصر. فكل ما تتمناه هو مكان بجوار قلبه.  
وقال حالماً:

«في فينيا، وفي بيت لا يتحرك و أبواب يمكن قفلها، ونوافذ تطل على منظر لا يتغير إلا باختلاف الفصول».

ثم استطرد يقول بتنهيده تيين شوقه الذي لم تره فيه من قبل:

«سيضم بيتنا كل ما أعتز به في العالم، وهو أنت يا حبيبتي...»

وانحنى عليها يعانقها بحنان، فلاذت به وهي تعرف تماماً ما يريد، وكانت راضية بمبادلته نفس الشعور، فإن ابن الطبيعة هذا لن يرضى أن ينتظر طويلاً، وستكون مستعدة عندما يحتاج إليها لتطمئنه بأنه لن يندم على الثمن الذي دفعه في عروسه.